١٥٦

روايات احلام

أحزان بلا اسم

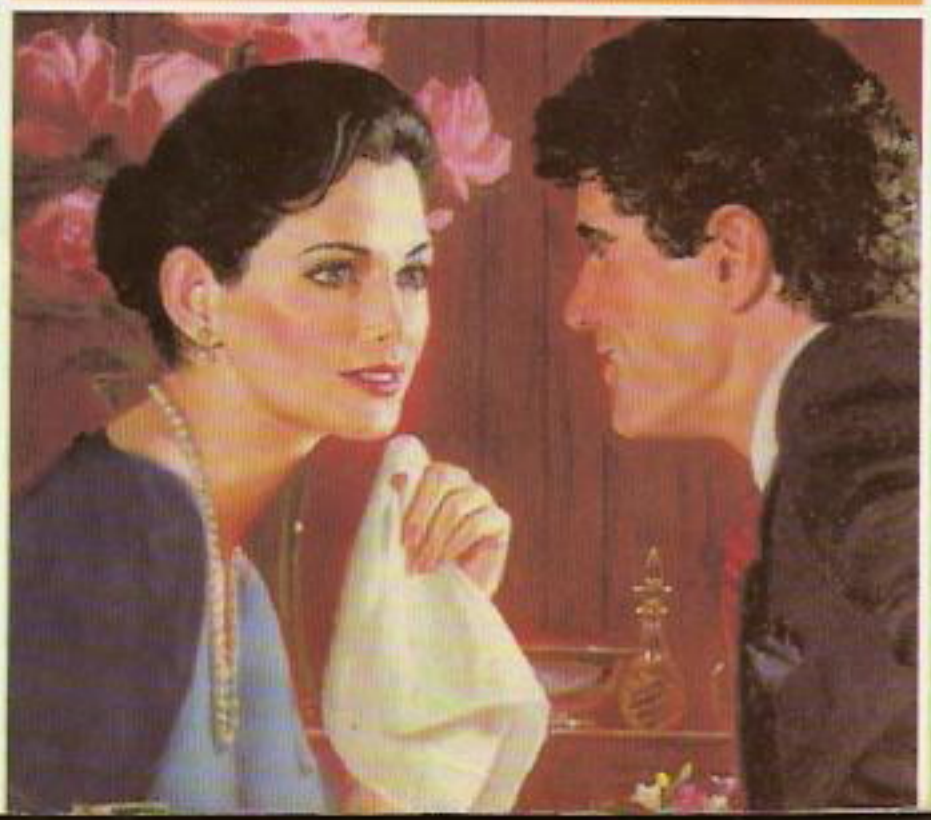

روايات احلام

أحزان بلا اسم

عندما دفنت يولا حبيبها توقف الزمن لديها، ولم تعد إلى الحياة.. وما نفع الحياة لامرأة تعيش بلا قلب!!..

لذا عندما التقت ماتيو ستراتون قرأت قصة عذابها في عينيه... رجل معذب يطارده شبح زوجته... وعندما طرح ماتيو فكرة الزواج عليها وافقت، فقد تحصنها برودة قلبه من دفء الحياة حولها...

... ثم تحرك شيء في داخلها بعد طول غياب... هل هو قلبها وقد عادت إليه الحياة؟ وكيف يخونها هذا القلب مع زوجٍ لا أمل لها في نيل حبه، فمن يستطيع أن يكسب معركة مع شبح ميت؟

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل. | الإمارات | مصر ٤ ج. | ليبيا
سوريا ٧٥ ل.س. | قطر ١٠٠ ر. | المغرب ١٥ د.
الأردن ١ د. | البحرين ٦٠٠ ف. | تونس ١,٥ د.
الكويت ٥٠٠ ف. | السعودية ١٠ ر. | عمان ٦٠٠ ب.

١ـ أهلاً بالحزن!

وقفت يولا بصبرٍ في صف الاستقبال وهي تتعجب من جديد كيف سمحت لشقيقتها أن تقنعها بحضور هذه الحفلات المملّة. كان المصطفّون الذين بلغ عددهم الثلاثماية شخص يسيرون ببطءٍ إلى الأمام، وهم متشوّقون لمصافحة عضو مجلس الشيوخ الجديد عن ولاية ماريلاند.

بعد وجبة الطعام الذي لا مذاق له، سيتكلّم بعض الخطباء كلّ بدوره، فتأكّد لها أنّ حفلة الاستقبال هذه ستمتدّ بضع ساعات، لكنّها كالعادة لن تُعيرَ اهتمامها لأيٍّ من المتكلّمين أو لخطاباتهم. لقد توصّلتْ من خلال الخبرة الطويلة إلى إلهاء نفسها عن القضايا السياسية بالتفرّغ إلى الفن الناعم.

شعرت فجأة بيد «ديفيد» تطوّق خصرها وحاول أن يشدها نحوه، فجفلتْ ونظرتْ إليه نظرة سريعة متجهّمة، فسحب يده بعيداً.

قال لها وهو يتمتم بصوت خافت:

ـ بحق الله يولا! أهكذا تكون فترة الاسترخاء!

أجابته ببرودة:

ـ أبقى مسترخية ما دمت تحتفظ بيديك بعيداً عني.

رفع ديفيد عينيه الزرقاوين نحو السماء وقد تملكه الغيظ، فعرفتْ يولا أنه قد تأثر كثيراً لأنها جرحت عنفوانه برفضها، لكنّ شعوره لا يعني لها شيئاً فقد شرحت له مراراً، وبطرقٍ عديدة، أنها لا تريد أن يضع يده عليها أو يلمسها.

ها هو الآن يرفع رأسه الأشقر مبتسماً ويحاول من خلال دماثة أخلاقه أن يستعيد رباطة جأشه.

قال لها بنبرة ساخرة استسلامية:

ـ لا أدري لماذا أتحلّى دائماً بالصبر معك؟

فأجابته بصوت حاد:

ـ عليك بالطبع أن تكون صبوراً، لأنّ مارغريت هي من أقحمك في هذه المحاولات.

ضحك لأنها كانت محقّة. تقدّمت يولا قليلاً نحو الأمام في صفّ الواقفين. يعرف جيداً أنها تتكلم الصواب فشقيقتها تتمتع بنفوذ كبير واسع في مجتمع واشنطن ليس لأنها زوجة أحد مساعدي الرئيس الأميركي المهمين بل لأن شخصيتها قوية.

قال لها ديفيد بكآبة:

ـ شقيقتك امرأة هائلة. لماذا لا تكون رئيسة؟

أجابته يولا بطريقة جافة:

ـ أوه! أعطها بعض الوقت فهي لا تزال في السادسة والثلاثين من عمرها، وهي لا تكاد تتعدى الحدّ الأدنى للسنّ المفروضة لمثل هذا المنصب.

فتمتم ديفيد:

ـ بحق الله لماذا لا تحاولين أن تتشجعي وتقدّمي نفسك؟

ها هما الآن تقريباً في رأس الصفّ، وقد أصبح باستطاعة يولا أن ترى شعر مارغريت الأحمر، وتكاد تسمع نبرة صوتها العالية الحادّة. أخيراً قالت يولا في نفسها: سأعود باكراً إلى المنزل، إذ لم يكن في نيّتها البقاء حتى آخر الحفلة، لكن كعادتها تجاهلت مارغريت اعتراضاتها الواهية. كانت شقيقتها قد قرّرت منذ ستة أشهر أن تقوم بحملة نشطة لدفع يولا إلى الخروج من عزلتها الكئيبة وعندما تقرّر مارغريت شيئاً فهي لا تقاوم.

تكبرها مارغريت بعشر سنوات، وهي بالنسبة إليها أكثر من شقيقة، بل بالأحرى أصبحت أماً ثانية بعد وفاة والدتهما. لكنّهما كانتا امرأتين مختلفتين كلياً بطباعهما. فمارغريت امرأة واثقة جداً من نفسها ومنفتحة كلياً على الناس بحيث تعودت التودّد إليهم بسهولة فائقة ومن دون تحفّظ، أما يولا فهي على عكسها عاطفية انفعالية ومتحفّظة جداً فمنذ وفاة زوجها ريتشارد انقطعت عن الناس وعاشت في عالمها الخاص.

نادتها مارغريت بصوت عالٍ عندما رأتها:

ـ ها أنتِ أخيراً هنا يا حبيبتي برفقة ديفيد، إنكما بالحقيقة تشكّلان زوجاً رائعاً.

تنهّدت يولا. أما مارغريت فتظاهرت وكأنها تفاجأت بوجودهما معاً، وكأنها شخصياً لم تكن وراء كلّ ذلك. مسكين ديفيد فلأنه عضو حديث في الكونغرس، ليس باستطاعته أن يرفض أي خدمة لمارغريت والخدمة التي أرادتها أختها هي أن يكون مرافقاً لشقيقتها.

ستقام بعد انتهاء الاستقبال حفلة راقصة في قاعة الاحتفالات.

تابعت مارغريت حديثها قبل أن تسمع اعتراضات بولا.

ـ ستنضمين إلينا على مائدتنا.

ثم التفتت إلى ديفيد قائلة:

ـ احرص على أن تبقى هنا. أليس كذلك ديفيد؟

كانت نبرة صوتها حازمة. تمتم ديفيد: «بكل تأكيد».

ـ أما الآن فسيقدّمكما وليم للسناتور ستراتون.

انصرفت وهي تنظر إليهما، وقد ركّزت ابتسامتها المتألّقة على الناس الواقفين في الصف خلفهما. وراحت تمد يدها لمصافحة المهنّئين.

قالت بولا وهي تبتسم لصهرها: «هللوا كيف حالك وليم؟».

وليم مديد القامة، ممتلئ الجسم، أحمر الوجه، أقرع الرأس. وهو صاحب طاقة كبيرة لم تر أحداً ممن تعرفهم يملك مثلها، وهو إلى ذلك يعبد شعر زوجته الأحمر، إنّه بالنسبة إليها بمثابة الأب. أدارت له وجهها ليقبّلها قبلة أخوية. ثم قال لها مرحّباً:

ـ عزيزتي بولا تسرني رؤيتك أنت وديفيد.

ثم مد يده لمصافحة الشاب الصغير وتابع:

ـ يطيب لي أن تقابلا الآن السناتور ستراتون.

ألقتْ بولا نظرة سريعة على الرجل المديد القامة الواقف إلى جانب وليم. كان يتكلّم إلى الناس الموجودين أمامهم وقد أدار رأسه عنهم. خلال تناول الطعام وأثناء الخطابات لم تعره بولا أي انتباه، لأنها كانت جالسة مع ديفيد إلى الطاولات الخلفية بعيداً

عن الطاولة الرئيسية لذلك كوّنت صورة مبهمة عن رجل طويل مديد القامة ذي صوت عميق وكلام مضجر.

أما الآن وقد أخذت تنظر إليه للمرة الأولى بانتباه، لاحظت أنه يشبه إلى حد كبير رينشارد، فظنّت للحظة أنّ زوجها المتوفى واقف أمامها، ثم استدار بحيث أصبح مواجهاً لها فاختفى عندئذ الوهم من أمام ناظريها. كان شعره أكثر اسوداداً من شعر رينشارد، ومتماوجاً بدل أن يكون ناعماً حريرياً. بدت قسمات وجهه أكثر بروزاً، وتعابيره أقسى. كان رينشارد أنيقاً ووسيماً، طالما فكّرت أنّ عينيه البنيّتين العطوفتين وابتسامته العذبة الدافئة تضيء الدنيا أمامها.

أما وجه هذا الرجل فيبدو كأنه صُقِلَ من حجر الغرانيت. كان هناك فقط ظلّ ابتسامة مهذّبة على شفتيه النحيفتين المستقيمتين، عندما نظرت إلى عينيه الرماديتين الصخريتين اختفى كلياً أيّ شبه بينه وبين رينشارد، ثمّ سمعتْ وليم يقول له بصوت بدا بعيداً جداً:

ـ شقيقة زوجتي «بولا وارنغ»، «ديفيد وبّات» عضو الكونغرس الشاب عن ولاية ماسشوستس، السيناتور ماتيو ستراتون.

رفعت ماتيو يدها وصافحته ثم سحبتها بسرعة، فتمتم وهو ينظر إليها نظرة خاطفة باردة «السيدة وارنغ» ثم ارتدّ نحو ديفيد.

ابتسمت بولا له بتهذيب ولكنها أحسّت بامتعاض غامض تجاه هذا الرجل الغريب المتحفّظ، ربما لأنه لم يكن رينشارد أو لأنه غير ودود.

بينما كان ديفيد يقودها بين الناس المحتشدين نحو صالة

الاحتفالات في الفندق نسيت كلّ شيء عن السناتور ستراتون وراحت تفكّر كيف ستتمكّن من الانسحاب بعيداً وبسرعة، من دون أن تُثير غضب مارغريت. عندما وصلا قرب نهاية صف الاستقبال أصبح باستطاعتها أن تسمع الأوركسترا تعزف في صالة الاحتفالات وأن تشاهد عدداً كبيراً من الحاضرين الذين بدؤوا بالرقص.

قادهم الخادم إلى مائدة وليم الموجودة على طَرف حلبة الرقص. لاحظت بولا أنّ المائدة أعدّت لثمانية أشخاص ولكن لم يكن هناك أحد.

قال لها ديفيد: «هل تسمحين لي برقصة؟»

ـ لا، شكراً، ليس الآن.

أجلسها إلى المائدة وهو يسألها:

ـ ما رأيك ببعض العصير؟

أومأت برأسها: لا بأس، عصير البرتقال من فضلك.

أشار ديفيد إلى الخادم أن يحضر لهما طلبهما بسرعة ثم جلس قربها وهو يسألها:

ـ حسناً! ما هو انطباعك عن السناتور الجديد؟

ـ ليس جيداً! لا أرى عنده تلك الشخصية الغريبة المتألّقة، في الواقع أستغرب كيف استطاع أن يفوز في الانتخابات.

ضحك ديفيد قائلاً:

ـ إنّه أمل ماريلاند الكبير، فهو يتحدر من عائلة ثرية ذات نفوذ واسع.

ابتسمت بولا! فعائلة ديفيد كانت تمتلك نصف الولاية

قديماً.

ثم قالت له:

ـ هل ذلك يعني أنه اشترى عضوية مجلس الشيوخ بفلوسه؟

فطمأنها ديفيد بسرعة قائلاً:

ـ أوه! لا! لا وجود لأي شيء من هذا القبيل، إنه يتعاطى السياسة في ولايته منذ سنوات عديدة ورغم أنه لا يملك صفة رجل السياسة الودود فهو رجل قانوني قدير ويتمتّع بشعبيّة كبيرة.

ـ سآخذ كلامك عنه بعين الاعتبار.

يضجرها هذا الموضوع فالشيء الوحيد الذي يشغل بالها الآن هو كيف يمكنها الابتعاد عن هذا الجوّ.

قال لها ديفيد بصوت خافت:

ـ أعرف شقيقتك جيداً، لقد دفعتنا إلى حفلتها هذه، لذلك أقترح عليك أن تقومي بتضحية قصوى، وترافصيني لمرة واحدة، وبعدئذ لك أن تذهبي بسلام.

نظرت إليه بولا نظرة سريعة عابسة وقالت له بنبرة قاسية: ديفيد...

لكنّه وقف فجأة ومدّ لها يده وهو يقول: «تعالي».

رقصا على أنغام الموسيقى القديمة العذبة برصانة، كان الراقصون من الأوساط المحافظة، ومعظمهم متوسطو العمر. القوة في الحكم تأتي عادة متأخرة في الحياة، وهؤلاء الحاضرون في هذا الحفل يشكّلون عدداً وفيراً من الوجوه المهمّة في المجتمع السياسي، في واشنطن.

كانت بولا مسرورة لأن ديفيد يراقصها وقد ترك مسافة بينهما،

ففي أول مناسبة لهما معاً كانت مارغريت قد ضغطت عليه ليكون في خدمتها كمرافق لها. فضمّها بشدة إليه وهو يراقصها حتى تضايقت منه فتركته واضطرّت أن تأخذ سيارة أجرة للعودة إلى المنزل، ومنذ ذلك الوقت لم تخرج برفقته.

فكّرت وهي ترمقه بطرف عينها أنّه يحاول هذه المرّة المحافظة على كرامته وعنفوانه. كان يعتبر نفسه زير نساء في مدينةٍ عدد نسائها يوازي ضعف عدد رجالها، وقد دلّلته وأفسدته مضيفات المجتمع السياسي في واشنطن منذ أن وطئت قدماه العاصمة. ليس فقط بسبب اشقراره الجذّاب، بل بسبب ثروة عائلته الطائلة أيضاً.

قال لها وهو ينظر إليها بإعجاب:

ـ تبدين فاتنة كعادتك يولا! إنّ هذا الثوب الرائع يناسبك... لا أدري ما هو لونه، فهو بالأحرى شبيه بلون عينَيْكِ.

أجابته ببرودة:

ـ لا أدري بالضبط ربما كان أزرق على أخضر، يبدو وكأنه صُمّم للمشي.

اعترض وهو يقول لها: لا شك أن له اسماً أكثر رومانسية.

ضحكت: «لو كان له اسم آخر لأخبرني صاحب المتجر به، لكنّني أقدر أن أبتكر له اسماً بنفسي. ما رأيك باسم «الزبرجد» أزرق ـ مخضّر، أليس ذلك مضحكاً؟»

نظر إليها ديفيد بعينين دافئتين وهو يقول لها:

ـ أنت جميلة جداً عندما تبتسمين يولا، يجب أن تبتسمي غالباً.

رفع يده يلمس شعرها الأسود الحريري، فانقبضت أساريرها

فجأة واختفت ابتسامتها وألقتْ على ديفيد نظرة حازمة تحذيرية لأنه تخطى حدوده.

في تلك اللحظة توقفت الموسيقى، فسحب ديفيد يده بسرعة وارتدت يولا إلى الوراء. عادا معاً إلى المائدة بصمت وكان يمسك مرفقها برقة. في هذه المرة وجدا المائدة ملأى وكانت مارغريت تتصدر أحد طرفيها ووليم يتحدث إلى السناتور ستراتون.

نادتها مارغريت: ها أنتِ أخيراً هنا، خشيت أن تكوني قد ذهبت إلى المنزل.

أجابتها يولا فوراً بينما كان ديفيد يحاول أن يجلسها إلى جانب شقيقتها:

ـ لا! مارغريت كما ترين ما زلت هنا، كنت أرقص مع ديفيد.

نظرت إليها مارغريت نظرة راضية قالت لها: «ما أروع ذلك» ثم التفتت إلى المرأة الجميلة الشقراء الجالسة إلى جانبها:

ـ تعرفين «ميشال لاتروب» أليس كذلك يولا؟

ـ طبعاً! كيف حالك ميشال!

تعرفها يولا بسبب شهرتها. إنها امرأة مطلّقة في الثلاثين من عمرها يتمتّع والدها بمركز مهمّ في الجهاز الإداري، وقد لمع اسمه مراراً إلى جانب الشخصيات المنتخبة المهمّة في واشنطن.

ظنّت يولا أنّ السيدة الأخرى الجالسة إلى الطاولة هي رفيقة السناتور ستراتون، ولكن مارغريت تابعت تقديم الموجودين: «السيدة بينفر» وكان زوجها يتحدث آنذاك إلى وليم والسناتور.

عادت الموسيقى إلى العزف من جديد فتوجّه السيد والسيدة بيتنفر إلى الحلبة ثم طلب ديفيد من ميشال أن تراقصه.

راحت بولا تنظر إليهما ببرودة، فرأت ذراعي ديفيد تمتدان لتطوقا الشقراء الطويلة ثم رأته يضع إحدى ذراعيه على ظهرها ويضمّها إليه فالتصقت به ميشال التي وضعت ذراعيها حول عنقه وهي تنظر إليه بتحدٍ.

سألتها مارغريت: «أتشعرين بالغيرة منها».

اتسعت عينا بولا ونظرت إلى شقيقتها بتعجب: أغار على ديفيد! تمزحين بلا شك.

حاولت مارغريت أن تبتسم وقالت لها:

ـ طبعاً! نسيت نفسي للحظة.

انحنت على بولا وقالت لها:

ـ ماذا عساي أفعل يا عزيزتي لأجعلك ترغبين في رجل ما؟

ـ أرجوكِ مارغريت توقفي عن ذلك. كيف أقنعكِ أنني بكلّ بساطة لا أستطيع أن أهتمّ لأيّ رجل؟

ـ بل تعنين أنك لا تريدين ذلك.

ـ حسناً! ما الفرق ما دامت النتيجة واحدة؟

ها هو وليم والسناتور يقفان الآن أمامها، فتمنّت بولا ألا يكونا قد سمعا تعليقات مارغريت.

التفت الرجل المديد القامة إلى مارغريت وهو يقول لها: هل تسمحين لي برقصة معك سيدة شاندلر؟

نظرت إليه مارغريت وقالت له:

ـ شكراً أظنّني غير قادرة فأنا أشكو من التهاب في المفاصل،

لماذا لا تراقص بولا؟

تمنت بولا أن تقتلها لشدة غيظها، التهاب المفاصل! يا للحجة العجيبة! فلم تشكِ مارغريت يوماً من أي ألم أو وجع رأس حتى، فالجراثيم لا تتجرأ على الاقتراب منها. نظرت بولا إلى السناتور ستراتون وهي تحاول أن تفتح فمها لتعتذر منه لكنّه كان قد اقترب منها ووقف إلى طرف الطاولة وقد مدّ لها يده.

فكّرت وهي تمسك يده أن عليها أن تتفادى هذا الرجل المديد القامة، الغامض، البارد، الواثق من نفسه ومن مظهره.

لم تكن بحاجة إلى القلق، أمسكها ببرودة وبدا وكأنه منهمك، فلم يحاول حتى أن يفتح حديثاً معها. لاحظت وهي ترقص معه بصمت أنّه متضايق وضجر مثلها: «لعنة الله على مارغريت، لماذا أقحمتني مع هذا الرجل؟»

أخيراً قالت له بانقباض:

ـ أنا آسفة.

أعارها انتباهه وتمتم بهدوء: «أرجو أن تعذريني».

ـ قلتُ لك أنا آسفة لأنّ مارغريت دفعتك لمراقصتي، إنها معتادة على المناورة.

ظهرت على محياه ابتسامة سريعة وقال لها:

ـ أجل لاحظت ذلك، هذا ما يجعلها مضيفة ناجحة، يحتاج الناس أحياناً إلى المناورات.

تعجّبت من بعد إدراكه وقالت له:

ـ ربما أنت على حقّ، ولكن ذلك يرهق الأعصاب قليلاً عندما تكون أحد أقربائها.

أجابها: «أعرف شعورك، فأنا ضحية المشكلة نفسها مثلك تماماً».

رمقته بنظرة حادة وهي تتساءل هل هي محاولة جديدة للتقرّب مني؟

ثم أكمل حديثه:

- وجدتُ أنّ أفضل طريقة لمواجهتها هي في مجاراتها، لا ضرر من ذلك، يمكنكِ أحياناً أن تقابلي أشخاصاً مشوّقين.

فكرتْ يولا وهما على وشك الانتهاء من الرقص أنّه ربما على حق فيما قال، فمارغريت مصمّمة على مواصلة محاولاتها ما دامت يولا تقاومها. تعجبت لماذا وجد ماتيو ستراتون أن من الضرورة أن يتعلم الإنسان كيف يتعامل مع محاولات التعارف التي تواجهه.

هل هو أعزب مزمن؟ أهو زير نساء يسعى إلى حريته؟

بما ساورها الشك في ذلك، لم ترقص قط مع رجل لا يبالي بها كامرأة. فخلال حديثهما القصير لم يبدر عنه أي تلميح أو مضايقة أو إطراء في طريقة حديثه ونبرة صوته.

ربما يحب فقط الشقراوات، هذا ما فكرت فيه وهو يُعيدها إلى الطاولة ويجلسها إلى جانب ديفيد. راقبته يتّجه نحو ميشال ويطلب منها أن تراقصه. ابتسمت له المرأة الشقراء بإغراء ووقفت بسرعة ووضعت يدها بشكل حميم في يده. لاحظت يولا أنّ تعابير وجهه لم تتغيّر بل ظل رزيناً متحكّماً بمشاعره وغير مبالٍ.

بدا وكأنه منهمك، وفكره بعيد كل البعد عن الحضور. ولم يكن باستطاعة يولا أن تفهم هذا التصرّف أو ما هي المشكلة التي تشغل باله ليظلّ صامداً بسهولة أمام إغراء وسحر المرأة الجميلة

التي بدتْ مستعدة لتقديم نفسها له على طبق من ذهب.

في الصباح التالي عندما رنّ جرس الهاتف باكراً علمت يولا قبل أن تجيب، أنّ مارغريت على الخط، ليس فقط لأنها كانت تنتظر توبيخاً من شقيقتها بل لأنّ الهاتف يبدو وكأنه يرن رنيناً خاصاً عندما تطلبها مارغريت.

تناهى إلى مسمعيها صوت شقيقتها المستبدّ.

- حسناً.. ماذا تنوين؟

- مارغريت، أحاول إنهاء بعض أعمالي فاليوم ظهراً تنقضي المهلة التي يجب أن أقدم فيها رسومي التوضيحية للجريدة.

- بئس الرسوم! كيف تفسرين خروجك أمس فجأة من الحفلة؟

حاولت تفادي الرد على سؤال شقيقتها:

- بسهلٌ عليك قول ذلك فأنت تجلسين هناك في فيرجينيا عارقة في الترف، أما أنا فمضطرّة أن أركض وراء لقمة العيش.

- لا حاجة إلى ذلك لو تزوجتِ ثانية. والآن أجيبي عن سؤالي!

كانت يولا تنظر من النافذة إلى المطر المنهمر على الزجاج... فحاولت إيجاد جواب مقنع وإلاّ لن تدعها مارغريت تنهي عملها.

قالت بصوت ضعيف: لم أكن على ما يرام.

ولم تكن كاذبة بجوابها فقد مضى عليها أكثر من شهر تقريباً كان نومها فيه سيئاً وأكلها قليلاً.

- ألاحظ ذلك. طلبتُ منك مراراً عديدة أن تستشيري

الطبيب... تبدين فظيعة، أنت نحيلة كثيراً والأسوأ أنك فقدتِ لونك ونضارتك.

ـ شكراً جزيلاً! تُشعرينني بتحسن كبير. لا أهتم أبداً كيف أبدو.

راحت الدموع تترقرق في عينيها.

ساد الصمت على الخط، في هذا الوقت راحت يولا تستعيد قواها وأخذت مارغريت تسترجع ملاحظاتها الأخيرة ثم قالت بصوت رقيق:

ـ يولا، أريد منك أن تأخذي موعداً اليوم من الطبيب بانكس، لأنني قلقة عليك. يجب أن تضعي حداً لهذا التصرف... لقد مات ريتشارد منذ سنة..

قاطعتها يولا: «لا أريد سماع شيء بهذا الخصوص».

أجابتها مارغريت «حسناً» ثم سكتت، ثم قالت لها بصوت حازم: «هل ستتصلين بالطبيب بانكس؟ أم أتصل به أنا؟»

تعلم يولا جيداً أن مارغريت ستصرّ على الأمر إن رفضت، وستطلب من طبيب العائلة أن يأتي شخصياً إلى المنزل لمعاينتها، لذلك من الأفضل أن توافق وتطاوعها.

ـ حسناً سأتصل به غداً.

أجابها الصوت الحازم: «اليوم وليس غداً».

ـ حسناً، سأتصل به اليوم.

أرادت يولا أن تضع حداً للمكالمة لتستطيع أن تنهي رسومها في الوقت المعيّن.

قالت لها مارغريت مستفسرة: «ما رأيك بماتيو ستراتون؟»

ـ لم أفكر في ذلك البتة. لماذا تريدين أن أهتم؟

ـ لا سبب هناك، ولكن فكّرت أنّ بينك وبينه شيئاً مشتركاً.

أجابت يولا بحذر: «وما هو هذا الشيء؟»

ـ إنّه فرّازٌ مثلك، أخبرتني «مامي برتش» وهي مثله من بالسمور أنه أرمل وأنه نادراً ما يخرج ولكن يبدو أنّه يُحبّ النقراوات. لقد حاولتُ أن أقرّب ميشال لاتروب منه ليلة أمس لكنّه انسحب بسرعة بعد ذهابك بقليل. كان ديفيد في غاية اللطف عندما عرض عليها أن يوصلها إلى المنزل.

بدا لها أنّ هذا الحديث الممل لن ينتهي أبداً فهي تريد أن تعود إلى عملها.

ثم تابعت مارغريت حديثها: «تعلمين أنني أريد ديفيد لك».

ـ حسناً، أعتقد أن ميشال تناسبه أكثر لأنها من نوعه المفضل. اسمعي مارغريت أنا مضطرة لمتابعة عملي. أتصل بك لاحقاً.

علّقت يولا الخط وجلست إلى مكتبها ثم راحت تتأمل المطر المتساقط. سيحلّ بعد قليل شهر كانون الأول، إنه شهر المطر والبرد في واشنطن وقريباً بدأ سيبدأ الثلج بالتساقط.

أحسّت فجأة ببعض الإحباط لأنها ستمضي أول شتاء بمفردها بعد رحيل ريتشارد. لن يكون باستطاعتها أن تتحمل ذلك، فهي تكره البرد والأيام القصيرة والشوارع المغطاة بالثلوج، وكان ريتشارد بابتسامته العذبة وحبه العميق يجعلها تتحمل هذا الطقس البارد من دون تململ.

لا يزال المنزل الذي جمعهما معاً لمدة قصيرة غارقاً

بذكرياته، وما زالت تشعر بوقع قدميه في الممرّ وبحركة المفتاح في المزلاج وبصوته الحنون يناديها. أوه ريتشارد لماذا تركتني؟ وراحت الدموع تنهمر بغزارة من عينيها.

بعد قليل أحسّت ببعض الهدوء، لكنّ الوهن أدركها ولم يعد باستطاعتها أن تعمل فأحست للمرة الأولى بحراجة وضعها.

فكّرت أنها وعدت مارغريت بالاتصال بالطبيب... شقيقتها دائماً على حق، فتّشت عن رقمه واتصلت به.

بعد الفحص الدقيق قال لها الطبيب بانكس وهو ينظر إليها من وراء نظارتيه:

ـ حسناً! أنت في تمام الصحة. تشكين فقط من بعض الضعف.

ثم أردف قائلاً:

ـ كم مضى على غياب ريتشارد، يولا؟

ـ سنة تقريباً.

ـ كان ذلك حادث قارب. أليس كذلك؟

ـ أجل حدث ذلك في خليج «تشيبيك».

هزّ برأسه:

ـ حادث مفجع، كان شاباً رائعاً يعمل مع زوج شقيقتك. أليس كذلك؟

أومأت برأسها وهي تكاد تتمزّق من هذا الحديث:

ـ حسناً أهذا كل شيء؟

قالتها وهي تقف في محاولة للانصراف.

قال بحدّة: «لا هذا ليس كل شيء، اجلسي».

فاجأتها نبرة صوته فأطاعته.

قال لها بصوت لطيف:

ـ أكتب لك هذه الوصفة، بعض الفيتامينات والمعادن. وأريد منك أن تقومي ببعض التمارين. مارسي لعبة التنس والسباحة.

هزت يولا رأسها بالموافقة وهو يتكلم وفكّرت فجأة أنّ في أسفل المبنى حيث تسكن حوضاً للسباحة لم تجربه قطّ.

ـ حسناً يجب عليكِ أن تبدأي فوراً.

وقف ثم أردف: «ستكونين على ما يرام، فأنت تتمتعين بصحة جيدة، كم عمرك؟»

نظر إلى ملفها ثم أضاف:

ـ سنة وعشرون عاماً، ما زلت فتيّة على الحزن فالحياة أمامك طويلة.

«لا، أنا لا أرغب في ذلك».

هذا ما فكرت فيه وهي تشكره بتهذيب قبل أن تخرج من المكتب. لا أحد يحاول أن يفهمها. لقد تعبت من شرح ما تشعر به في كل مناسبة، فحياتها انتهت في اللحظة التي رحل فيها زوجها.

اشترت الأدوية وهي في طريقها إلى المنزل. لدى وصولها دخلت فوراً إلى المطبخ لتغسل بعض الأواني، ثم قرّرت أن تبدأ في الصباح الباكر بتمارينها، ستبدأ بالسباحة...

* * *

٢ ـ رجل غريق

لم تنزل بولا إلى حوض السباحة الموجود في قاعدة البناية حيث تسكن منذ قررا شراء الشقة وذلك منذ سنتين، ولكن ريتشارد استعمله أحياناً في المناسبات. أما هي فلم تمارس رياضة السباحة فيه قط بل كانت تجهل كلياً الطريق المؤدية إليه. وقد تأكدت من ذلك، فعندما نزلت في الصباح التالي إلى قاعدة البناء، وجدت أنها أمام ثلاثة ممرات تؤدي إلى ثلاثة اتجاهات مختلفة. كانت قد قررت السباحة باكراً في السادسة صباحاً حين لا يكون هناك أحد. اختارت أحد الممرات ومشت تحاول أن ترى في الممر علامة تشير إلى مكان وجود الحوض، أخيراً وصلت إلى باب معدنيّ أصفر اللون كالجدران المحيطة به كتب عليه «منطقة حوض السباحة»، فتحته فوجدت قاعة كبيرة دافئة مضاءة بالأضواء الخضراء الموجهة إلى بركة السباحة.

شاهدت شخصاً في الطرف الآخر من الحوض يسبح صعوداً وهبوطاً بشكل بطيء، فخفق قلبها. اعتقدت أنها ستكون بمفردها لذا جلست بتردّد على كرسيّ من القماش وراحت تتساءل عما تفعل؟

فكرت أن حوض السباحة واسع جداً، لذا لن يضيرها أن

تسبح في الطرف الآخر من الحوض فبذلك تظل بعيدة عن نظر الرجل الذي يسبح بمفرده في الطرف المقابل. وهكذا لن يلاحظ وجودها.

نزعت عنها منشفة الحمام ووضعتها على الكرسي. فكّرت في الرجوع إلى الشقة على أن تعود في وقت لاحق ولكن عندئذ ستجد المسبح مُزدحماً بالسابحين. أخيراً نزلت إلى الحوض بحذر. كانت المياه دافئة، وعندما حاولت أن تسبح سمعت ضجة صادرة من الجهة المقابلة، ورأت رجلاً مديد القامة يحاول الخروج من الماء وقبل أن تدير طرفها تلاقت أنظارهما. وكم تفاجأت عندما عرفت أن الرجل الواقف على بعد عشرين ياردة منها لم يكن سوى ماتيو ستراتون!

شعرت بانقباض لأنّها أملت ألا تشاهد أحداً في هذا الوقت الباكر، وعلى الأخص شخص تعرفه. ارتبكت لأنّها لا تريد أن يشاهدها في ثياب السباحة فهي تبدو فيها نحيلة جداً. أخيراً نادته: «ماذا تفعل هنا؟» متسائلة إذا لحق بها أو إذا أرسلته مارغريت. صعدت فوراً من الماء ووضعت المنشفة عليها وأخذت تنشّف وجهها وجسمها.

أجابها بهدوء: أسكن هنا. ومشى خطوة نحوها في محاولة للتعرف إلى من يخاطبه. قال أخيراً: «أنت شقيقة وليم شاندلر».

ـ بل أنا شقيقة زوجته.

اضطربت قليلاً عندما رأته في ثياب السباحة. إنه رجل قوي البُنية، مديد القامة، مفتول العضلات.

ـ أجل، أنت بولا شقيقة صانعة الزيجات. هل تسكنين أيضاً

هنا؟

يا لتلك الصدفة اللعينة! يبدو أن الشك يساوره بسبب وجودها هنا. إنه لشيء مضحك، كيف تشرح لهذا الرجل أنها لا تريد منه شيئاً؟

أجابته: أجل، أسكن هنا منذ سنتين.

ـ لكنها المرة الأولى التي أراك تسبحين فيها هنا.

ـ اعتقدتُ أنني لن أجد أحداً هنا في هذه الساعة المبكرة.

ألقى عليها نظرة سريعة واتجه إلى غرفة الملابس المخصّصة للرجال قائلاً:

ـ لا ينزل أحد في هذه الساعة، ولهذا السبب أنزل في هذا الوقت المبكر.

عندما ذهب ظلّت بولا جالسة وقتاً طويلاً على طرف حوض السباحة ترتجف من الغيظ بسبب هذا الرجل الجلف. من يعتقد نفسه؟ هل يظنّ أنّ كل امرأة تقترب منه تبغي أن ترميه بشباكها؟

نزلت إلى الماء وأخذت تسبح لتطفئ غيظها... بعد قليل من الوقت شعرت ببعض الراحة وحاولت أن تنسى تلك المفاجأة اللعينة التي حصلت لها مع مايو.

في النهار فيما كانت ترسم فكّرت في ذلك اللقاء الغريب وتبيّن لها أن السناتور البارد المنكمش على نفسه يحاول أن يتجنب العلاقات العاطفية وهذا ما تفعله هي أيضاً. وتذكرت كيف انسحب في حفلة الاستقبال من شباك ميشال لاتروب الفاتنة. فتعجبت وتساءلت ممن يحاول الفرار؟ ولتتحاشى الالتقاء به قررت السباحة ظهراً.

مضى أسبوعان لم ترَ بولا فيهما مارغريت وعندما ذهبت لزيارتها وجدتها منهمكة بترتيب الزهور والشتول الموجودة في قاعة الاستقبال الفسيحة في منزلها في فيرجينيا. وسارعت تقول لها:

ـ حسناً! بمكنني أن أقول إنك تبدين رائعة.

كانت بولا بالفعل تداوم منذ أسبوعين على السباحة وكانت تأكل جيداً وتنام نوماً خالياً من الأرق فكان أن استعادت بعض نضارتها.

وقد جاءت خصيصاً لمساعدة شقيقتها في ترتيب المنزل وتحضير الحفلة التي ستقيمها مارغريت لبعض الأصدقاء.

أجابتها بولا:

ـ أشعر بتحسّن ملموس فعلاً. بمَ أساعدك قبل مجيء الضيوف؟

ـ لا بأس، ما زالت الساعة السادسة. ماذا قال لك الطبيب بانكس أيضاً؟

ـ لا شيء يهم، وصف لي الرياضة وبعض الفيتامينات.

سألتها مارغريت بحدة:

ـ هل تمارسين الرياضة حقاً؟

ـ أجل أنا أسبح يومياً ظهراً حين يكون حوض السباحة فارغاً.

ـ حسناً ألاحظ أنك قد استعدت بعض الوزن لأن ثيابك لم تعد واسعة كثيراً.

نظرت بولا إلى فستانها الأسود الذي اشترته منذ سنتين، إنه من الحرير الثقيل وربما لا يتماشى على الموضة فسألت شقيقتها:

- هل يشكو ثوبي من شيء؟

أجابت مارغريت: لا! لا علة فيه، ولكنه لا يناسبك.

سمعنا فجأة صوتاً قرب الباب ينادي: «هل في المنزل أحد؟».

سحبت يولا نفساً عميقاً وقالت: «شكراً لله إنه وليم» ثم ارتدت لتصافح صهرها مبتسمة، ولكن الابتسامة سرعان ما اختفت عن ثغرها عندما شاهدت ماتيو ستراتون واقفاً وراءه، وهو ينظر إليها بعينيه الرماديتين.

تملكها الغيظ فنظرت إلى شقيقتها نظرة حادة قاسية تحاشتها مارغريت... ثم سرعان ما ارتدت بخفة وتقدمت نحو الرجلين فقبلت زوجها على خده:

- هللو كيف حالك يا حبيبي.

ثم وجّهت كلامها إلى السناتور ستراتون:

- جميل منك أن تأتي برفقة وليم. أرجو أن تمضي ليلتك عندنا، لدينا غرف عديدة.

راقبت يولا نظرات الرجل الطويل اللامبالية ثم سمعته يتمتم بصوت منخفض:

- لقد تفاهمت على ذلك مع وليم!

أجابت مارغريت وهي تنظر إلى شقيقتها مبتسمة: «أجل ستعود غداً مساءً إلى واشنطن برفقة يولا. ستمضي طوال النهار معنا».

ردّدت يولا في نفسها وهي تتمزق من الغيظ: لا ليس هذه المرة أيضاً. لقد أحرجتني بما فيه الكفاية مارغريت. لا، لن تمرّ

لعبتك هذه المرة! أجابت بانزعاج:

- أنت على خطأ... سأعود هذه الليلة.

اعترضت مارغريت:

- أوه! ليس باستطاعتك ذلك.

أجابتها يولا بهدوء: «بل باستطاعتي ما هو أكثر».

ران الصمت لبرهة على الحاضرين ثم سمعت ماتيو يقول لوليم بهدوء:

- لا مشكلة. سمعتك تتكلم عن موعد غداً صباحاً في قسم الولاية. سأنهض باكراً وأعود برفقتك.

أجابه وليم بحماس وهو يلقي نظرة خجولة على زوجته:

- حسناً بالطبع. سيكون ذلك رائعاً!

حاولت مارغريت الاعتراض فقاطعتها يولا:

- لا بأس، لا داعي للنقاش لقد حلّت المشكلة.

بعد قليل، أخذ المدعوون يتوافدون إلى المنزل، لم يمض وقت طويل حتى كانوا جميعاً متحلقين حول المدفأة.

اتضح ليولا أن مارغريت التي انهزمت هذه المرة، خططت بذكاء لسهرتها. هناك ستة مدعوين كل مدعو برفقة زوجته وهم جميعاً يسكنون على مقربة من منزل مارغريت، أما هي وماتيو فهما الوحيدان الأعزبان في الحفلة.

حاولت طوال ساعات الحفلة أن تتحاشاه من دون أن تكون جلفة معه. شعرت بالراحة لأنه هو أيضاً تحاشاها، وراقبته من وقت لآخر فوجدت أنه أهدأ حالاً من المرتين السابقتين: في حفلة الاستقبال وفي حوض السباحة.

لاحظت بولا أنّ مارغريت أجلستهما جنباً إلى جنب بحيث لم يعد باستطاعتها أن تتجاهله.

كان صامتاً خلال العشاء، يأكل قليلاً ويجيب بتهذيب عندما يوجّه أحد الحضور الكلام إليه، لكنّه بدا كأنه يعيش في عالم خاص به بعيد آلاف الأميال عن الحاضرين.

خاطبته بولا:

- سناتور ستراتون؟

التفت إليها بهدوء وهو يقول:

- ماتيو، اسمي ماتيو.

استغربت بولا محاولته التقرب منها. وتكلمت بصوت خافت لئلا يسمعها الآخرون.

- أريد أن أعتذر عن شقيقتي.

نظر إليها بعينيه الرماديتين الباردتين:

- تعتذرين؟ عم؟ إنّها مضيفة رائعة.

فكرتْ بولا: لماذا يهزأ مني؟ اشتعل رأسها من الغيظ وأرادت أن تقوم بردة فعلٍ حاسمة، ولكنها عدلت عن ذلك عندما نظرت فجأة إلى عينيه فوجدت فيهما شيئاً مألوفاً بالنسبة لها.

تأكّد لها أنّ هذا الرجل يعاني من حزن كبير فشعرت بالحنان نحوه. وتساءلت عما تخفي تلك النظرة وراءها؟

ابتسمت له وهي تقول:

- أريد أن أعتذر منك. أرى أنّ مارغريت قد اختارتك هذه الليلة لتكون رفيقي.

نظر إليها ساهماً:

- لا بأس أنا معتاد على ذلك.

- حسناً يجب عليّ أيضاً أن أعتاد على ذلك. أعلم أنها تفعل ذلك من أجلي ولكنني أحس بانزعاج كبير من تصرفها هذا.

- لماذا يزعجك ذلك؟

- إنه يربكني لأنها تحشرني في موقف دقيق وتسيء كذلك إلى الأشخاص الذين تستخدمهم لهذا الغرض.

نظر إليها نظرة طويلة:

- لا أشعر بأيّ سوء.

- أنا مسرورة لذلك.

قال لها بهدوء وهو يختار كلماته بدقة:

- أخبريني، لماذا تتضايقين في هذه الحالات؟ ألأنك لا تريدين أن تلتقي برجال غير مرتبطين؟

- لا! أنا لا أريد ذلك ومارغريت تعلم ذلك جيداً.

في تلك اللحظة وقفت مارغريت قرب المائدة لتدعو الحاضرين إلى تناول القهوة قرب المدفأة.

خلال السهرة لم ترَ بولا ماتيو ستراتون إلاّ قليلاً لأنها ظلّت بعيدة عنه، ولكنها كانت تسمعه من وقت لآخر يجيب بهدوء وتهذيب عن الأسئلة التي تُطرح عليه، ومع ذلك ظلّ صامتاً معظم السهرة. استغربت كثيراً تصرفه وانزواءه وبدا لها أنه في كوكب آخر.

أخيراً، وقبل منتصف الليل جرّبت بولا أن تنسحب. كانت مارغريت غارقةً في الحديث مع النساء الثلاثة، فاقتربت من شقيقتها وقالت لها بحزم:

- يجب أن أذهب الآن.

وقبل أن تلفظ شقيقتها كلمة واحدة ارتدت بولا نحو النساء الأخريات قائلة: «عمتن مساءً».

رافقها وليم نحو المدخل وساعدها على ارتداء معطفها. بدا متجهم الوجه عندما قال:

- لا أحب أن تعودي إلى المنزل أو أن تقودي السيارة في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

- سأكون على ما يرام وليم، أنا بحاجة إلى ساعة فقط للوصول إلى المنزل.

ترددت ثم أضافت: «سأكون مُمتنة لك لو أقنعت مارغريت بالتوقف عن محاولة تزويجي ثانية».

- أنا أعلم، إنها تفعل ذلك لمصلحتك ولكنني أدرك أنك تعنين ما تقولين.

- أنا بالحقيقة أعني ما أقول.

- حسناً سأكون حازماً معها.

- شكراً وليم لا تحاول أن ترافقني إلى السيارة... الطقس قارص في الخارج. عمت مساءً!

لفّت بولا معطفها الثقيل عليها وتوجهت نحو سيارتها. كان الجو هادئاً وبارداً والسماء تتلألأ بالنجوم، وعندما اقتربت من سيارتها الكورفيت الصغيرة المتوقفة في الظلام شاهدت فجأة شبحاً يتكئ على السيارة.

توقفت مكانها من الخوف وحاولت أن تنادي وليم الذي ما زال واقفاً أمام الباب ينتظر دخولها إلى السيارة بأمان. عندئذ

سمعت صوتاً خافتاً مألوفاً يناديها:

- هل تسمحين لي أن أعود معك إلى المدينة؟

ثم تقدم ماتيو ستراتون خطوة نحوها حتى أصبح في الضوء.

اختنقت الصرخة داخل شفتيها عندما شاهدت وجه ماتيو الشاحب، وأدركت أن من غير اللائق مناقشته وهو في حالة يرثى لها.

فكرت بسرعة ونادت وليم: لقد غيّر ماتيو رأيه، سيرافقني إلى المدينة.

ردّد وليم «حسناً» ثم عاد إلى الداخل وأقفل الباب.

عندما جلست بولا خلف مقود السيارة كان ماتيو قد جلس بدوره إلى جانبها، ماداً قدميه الطويلتين أمامه مسنداً رأسه إلى المقعد ثم أغمض عينيه.

شغّلت بولا محرّك السيارة وانتظرت قليلاً حتى تصبح دافئة ثم قالت له بهدوء:

- سيتعجب الضيوف الآخرون كيف خرجت بهذه الطريقة. تعلم كيف تنتشر الإشاعات في واشنطن، سيتكلمون.

فتح إحدى عينيه وقال لها:

- سيكون ذلك أقل بكثير من الكلام الذي سيطالني فيما لو بقيت معهم وأنا في هذه الحالة.

كانت نبرته هادئة ورقيقة ثم أطبق عينيه من جديد. كان ذلك كل الحديث الذي جرى بينهما طوال الطريق إلى المدينة. نظرت بولا إليه من وقت لآخر وهو غافٍ. وصلت إلى مدخل العاصمة واشنطن. كان السير خفيفاً في تلك الساعة وبعد لحظات وصلت

إلى مدخل البناء ونزلت بسيارتها إلى المرآب. ثم نظرت إلى الرجل النائم إلى جانبها تتأمل ملامحه بهدوء، فبدا لها بالحقيقة رجلاً وسيماً رائعاً.

كان شعره الأسود منحدراً على جبهته. ورغم ملامح وجهه الهادئة ظلّت علامات الحزن مرتسمةً على محياه من خلال الخطوط العميقة حول عينيه. أرادت أن تكتشف سرّ الخطوط وعلامات الحزن هذه علها تواسيه...

فتح عينيه فجأة وحاول جاهداً أن يستعيد قواه وهو ينظر إلى بولا. حكّ رأسه ثم انحنى إلى الأمام ووضع رأسه بين يديه.

سألته بولا بصوت منخفض: هل أنت على ما يرام؟

نظر إليها وقال لها:

ـ آسف جداً.

شعرت للمرة الأولى أنّ صوته مضطرب.

ـ سأكون ممتناً لك لو رافقتني حتى باب منزلي.

تمتمت: بكل تأكيد.

سارت معه.. يسكن ماتيو في الطابق السادس وعندما وصلا سحب مفتاحه من جيبه وفتح باب الشقة.

رأت التعب واضحاً على محياه فسألته:

ـ هل تريد أن أحضّر لك بعض القهوة؟

كانا قد أصبحا داخل الشقة المظلمة، حاولت بولا أن تفتش عن زر الكهرباء لتضيء النور. ولكنها سمعته فجأة يئن أنيناً خافتاً ثم شعرت بذراعيه تطوقانها وتضمانها إلى صدره بقوة، حتى كادت أنفاسها تنقطع. قاومته فوراً ولكنها لاحظت بسرعة من

الطريقة التي أمسكها أنّ نواياه بريئة. بل هو بالأحرى رجل غريق يحاول الإمساك بخشبة الخلاص.

أخذت تمرّر يدها على شعره الأسود الكثيف بعطف وحنان. وظلاّ على هذه الحالة وقتاً طويلاً.

تدريجياً أخذ يمسكها باسترخاء ثم ما لبثت يداه أن راحتا تتزلقان حول جسمها بحرارة وقوة، ثم لاحظت أن المعانقة البريئة أخذت تتحوّل إلى ناحية لم يعد باستطاعتها أن تتحمّلها.

سحبت يديها من حول عنقه ووضعتهما على صدره لتبعده عنها، فضمّها إليه أكثر وأحنى رأسه يعانقها.

استرخت لبرهة واستجابت، لكن عندما شعرت أنّ عناقه يصبح أكثر تطلباً حاولت إبعاد نفسها عنه... كان يتمتم كلمة غير مفهومة، لكنها علمت أخيراً أنّه يردّد كلمة «بيث»... عرفت أن عليها أن تضع حداً لهذا، ولكنها لم تحاول أن تقاومه أو أن تبتعد عنه لأنه سيتشبّث بها أكثر فأكثر. شعرت فجأة أنها إذا ظلّت متجاوبة لحظة أخرى فسيكون الأوان قد فات على إيقافه. سحبت نفسها بجهد في محاولة لإضاءة النور فنجحت هذه المرة وانتشر الضوء في الغرفة.

قالت له بصوت عال:

ـ ماتيو! أنا بولا، هل تفهم؟ لست «بيث» أنا بولا.

وما هي إلا لحظة حتى ارتدّ عنها.

كان متأثراً، رأسه منحنٍ إلى الأمام... ثم تراجع بعيداً عنها إلى الوراء وهو ينظر إليها وقسمات وجهه منهارة فعلمت وهي تنظر في عينيه مصدر عذابه.

لم يكن باستطاعتها أن تتحمّل ذلك، فاستعادت فجأة ذكرياتها الحزينة وقلبها ينعصر من الألم وأخفت وجهها بيديها وهي تقول: «يا إلهي متى ينتهي ذلك؟».

أطلقت صرخة صغيرة، ثم فتحت الباب بسرعة وهرعت إلى المصعد تتضرع إلى الله ألا يلحق بها. لم تجرؤ على النظر إلى الوراء حتى فتحت باب المصعد وكبست الزر فرأت أن الممرّ خال.

كان اليوم التالي نهار السبت وكانت بولا قد كُلّفت بإنجاز بعض الرسوم التصويرية لإحدى دور الأزياء الشهيرة ومن الضروري أن تبدأ عملها باكراً لإنهائه في المهلة المعيّنة.

مع أن وثيقة التأمين التي تركها لها ريتشارد كانت تؤمّن لها نفقات الحياة، فالدراهم التي كانت تجنيها من عملها في التصاميم التصويرية كانت تساعدها على تأمين نفقاتها الكمالية، وتعطيها شعوراً بالاستقلالية وتملأ فراغ حياتها.

ما إن جلست إلى طاولة عملها حتى أخذتْ تفكّر بماتيو ستراتون وتصرّفه الغريب مساء أمس. بدا لها ذلك كالحلم. هل أمسكها حقاً بين ذراعيه وعانقها؟ ماذا تفعل عندما تلتقي به؟

من الصعب عليهما أن يتحاشيا بعضهما بعضاً، فهما يعيشان في البناء ذاته ويذهبان إلى المحيط الاجتماعي ذاته.

قرّرت أن تتناسى كلّ ما حدث وتحصر فكرها بعملها وبتصاميم الألبسة التي ترسمها. وراحت تفكر في نفسها وهي تشتغل.

أصبحت نحيلة كثيراً منذ وفاة ريتشارد، ومع أنها كانت دائماً

كعارضات الأزياء، نحيلة الخصر والوركين، مديدة القامة، متناسقة الأعضاء ولكنها اليوم أشدّ نحولاً.

كما توقعت ليلة أمس كان الطقس بارداً هذا الصباح، كانت الشمس مشرقة تنشر أشعتها الشاحبة على غرفة الجلوس ولكن بولا أشعلت المدفأة ليظلّ المنزل دافئاً وراحت تحتسي على مهل فنجان القهوة وهي تعمل بكدّ ونشاط.

عندما رنّ جرس الباب تشتت تركيزها وتجهّم وجهها لهذه المقاطعة، نظرت إلى الساعة، إنها الحادية عشرة... وضعت القلم على الطاولة وذهبت نحو الباب.

عندما فتحت رأت ماتيو ستراتون واقفاً أمامها. توردت وجنتاها وارتبكت لأنّها أقنعت نفسها بأن ما حدث ليلة أمس هو آخر علاقة لهما.

قال لها بصوت منخفض هادىء:

ـ صباح الخير، هل أستطيع الدخول؟

تردّدت وهي تنظر إليه، غير واثقة من نفسها. ما زال شاحباً ولكنّ نظراته عميقة وحادة. كان قد حلق ذقنه ومشط شعره الأسود الكثيف.

أجابته بنوع من التردد:

ـ جئت في وقت غير مناسب فأنا منهمكة في عملي كما ترى.

ونظرت إلى المكتب.

قال لها بصوت حاسم ومتجهّم:

ـ لن آخذ من وقتك إلاّ دقائق قليلة.

أومأتْ برأسها وفتحت له الباب قليلاً ليدخل ثم أقفله

بسرعة، وعندما ارتدت إليه رأته يسرّح نظره في غرفة الجلوس المريحة ثم يراقب النار المستعرة في المدفأة والسجادة في وسط القاعة، والثياب المعلقة في إحدى الزوايا وأخيراً مكتبها.

فركت يديها وهي تبتسم: هذا هو عملي، أنا مصمّمة أزياء.

ـ ألاحظ ذلك.

ـ هل ترغب في بعض القهوة؟

ـ أجل، شكراً، أرغب في ذلك مع أنني شربت لتوي غالون منها.

ـ اجلس ريثما أحضّرها.

ثم ذهبت إلى المطبخ.

عندما عادت، جلست قربه على الأريكة الكبيرة الملوّنة ووضعت إناء القهوة على الطاولة الصغيرة أمامهما. سكبت له فنجاناً وقدّمته له. بعدما بلع ريقه أخذ يتكلّم بصوت هادىء:

ـ جئت أعتذر عن ليلة أمس.

قالت له: «كنت مرهقاً ليلة الأمس لذا اعتبر ما حدث وكأنه شيء منسي».

ـ أنت في غاية اللطف. لقد عاملتني بكل رقة.

ضحكت وقالت له:

ـ لا أدري إذا لاحظ الضيوف الآخرون أنك كنت بعيداً كل البعد عنهم تسبح في عالم ثانٍ. لم تصرخ، كنت هادئاً جداً.

ابتسم ابتسامة حزينة وقال:

ـ نهضت هذا الصباح، فتذكرت جرأتي عليك. أعتذر لأنني فرضت نفسي عليك.

سحبت نفساً عميقاً واستدارت نحوه فرأت في عينيه علامة الحزن.

ـ عندما عانقتني ناديتني «بيث»... فمن هي بيث هذه؟

لكنّها ندمت على كلامها عندما رأت علامات الحزن العميقة في عينيه، وتابعت: أنا آسفة.

وقف ومشى ببطء نحو النافذة وراح ينظر إلى الخارج بصمت ثم قال لها:

ـ لا أريد أن أزعجك بعد الآن وأرى أن عليّ أن أشرح لك تصرفي معك. أنا لا أريد أن تأخذي فكرة خاطئة عني.. «بيث» هي زوجتي التي توفيت منذ سنتين، وأمس كانت ذكرى وفاتها.

صعقها هذا الخبر فاستعادت بسرعة ذكرى وفاة زوجها وعذابها. فجأة أحسّت بالوهن والضعف فأجهشت بالبكاء. لم يكن باستطاعتها أن تكبح عاطفتها. سمعت خطوات ماتيو وهو يسير ذهاباً وإياباً في وسط الغرفة ثم أحست به يجلس على الأريكة من دون أن يلمسها، لكنها كانت مستريحة لوجوده معها. أخيراً تمالكت أعصابها وأخذت محرمة من جيبها ومسحت الدموع عن عينيها ووجنتيها، والتفتت نحوه وهي تحاول الابتسام.

ـ آسفة، لقد استرجعت كلّ ذكرياتي فجأة، لم يسبق أن بكيت أمام أحد، أنا آسفة، شعرت كأنني مكانك.

سألها بحنان: أنتِ أيضاً؟

ـ أجل! منذ سنة تقريباً حصل ذلك أثر حادث قارب. ولم يتته أثره حتى الآن.

ـ يقولون إنه ينتهي، لكنني لا أدري، طبعاً أنا لا أعتبك

بذلك.

ـ لا لن يحدث ذلك لي أبداً.

وقف قربها وهو يقول: أنا آسف! لقد سببت لك ضرراً وآلاماً كبيرة، من الأفضل أن أذهب وأخرج قبل أن أتسبب لك بأضرار أخرى.

عندما رافقته نحو الباب لاحظت أنها تشعر بتحسن كبير لم تعرفه منذ مدة طويلة. وقفا على الباب وجهاً لوجه، فقالت له بصوت خجول:

ـ لا. لم تتسبب بأي ضرر بل على العكس كان ذلك مفيداً لي. فالآخرون كشقيقتي مثلاً لا يفهمون الخسارة الكبيرة التي أشعر بها شخصياً.

ابتسم: وأنا أريد أن أعتذر عن تصرفي الجلف معك عندما تقابلنا في حوض السباحة. أنا أحب السباحة بمفردي وعندما رأيتك فكّرت...

قاطعته: أعلم بماذا فكّرت: «مارغريت والاعيبها».

ابتسم: أجل... شيء من هذا القبيل.

ـ إذن لا تخف مني بعد اليوم.

ـ أنا لم أخفْ منك قطّ. لكنك لم تعودي إلى السباحة من جديد.

ـ أسبح في وقت متأخر عند الظهيرة حيث يكون المسبح فارغاً. هكذا أنام جيداً.

سألها:

ـ ما هو سرّك لتنامي جيداً؟

اختفت نظرته الباردة وشعرت ببعض الودّ نحوه، فقالت له بمرح:

ـ أوه! فيتامينات ورياضة وشقيقة مستبدّة بارعة بمخطّطاتها.

عندما ذهب اتكأت بولا إلى الباب وأغمضت عينيها وشعرت للمرة الأولى منذ شهور أنها قادرة على التفكير في ريتشارد من دون أن تشعر بذلك اليأس الرهيب. إنها تفتقده وهي تحبه دائماً ولا يمكن لأحد أن يحلّ مكانه، لكنّ انهيارها اليوم أمام ماتيو أفسح لها المجال لإظهار عواطفها الحزينة المكبوتة. لقد شعرت بالراحة لحدوث ذلك ولكنّها لا تريد أن يتكرّر الأمر مرة أخرى، بيد أن لا خوف منه لأنّها مقتنعة بأنه يشعر مثلها.

* * *

٣ ـ جمعهما العذاب

في الشهر التالي كانا يلتقيان غالباً في المناسبات، لكن من بعيد، فيبتسمان لبعضهما بعضاً من دون لفتِ الأنظار إليهما، وإذا حدث واجتمعا معاً على مائدة غداء أو في حفلة كانا يتحدثان بتهذيب بمواضيع غير شخصية.

كان دائماً برفقة الشقراوات ولكن لم يحدث قط أن ظهر مع الشقراء نفسها.

شعرت بولا، لأنها تتابع تمارينها الرياضية وتتناول فيتاميناتها، بتحسن كبير في صحتها ومظهرها. لقد استعادت وزنها وأناقتها، وبدت مارغريت راضية عنها. وأخذت تخفّف من إزعاجها بالمرافقين كدفيد وبّات وغيره، لأنها تأكّدت أن بولا لن تتراجع عن قرارها.

أمضت بولا عيد الميلاد مع مارغريت ووليم وولديهما اللذين عادا إلى المنزل في العطلة. كان نهار الميلاد رائعاً مع الطقس البارد، وشجرة الميلاد وطبق الغداء الفاخر. في اليوم التالي عادت بولا إلى شقتها الهادئة.

يصادف أول كانون الثاني الذكرى السنوية الأولى على وفاة ريتشارد. حاولت بولا الوصول باكراً إلى ضريحه ورغم الحزن

الكبير الذي كان يغلّف قلبها شعرت ذلك اليوم بالفراغ الكبير الذي تركه رحيله في حياتها. كانت الدموع تترقرق من عينيها وهي تتذكره وتنظر إلى صورته الموجودة على الطاولة أمامها قبل أن تطفىء الضوء وتخلد إلى فراشها.

خلال أسبوع الميلاد كانت العاصمة فارغة فكل الموظفين ورجال السياسة يتركونها للذهاب إلى عائلاتهم ومناطقهم.

في أواخر «كانون الثاني» قررت بولا الذهاب إلى مركز كنيدي لحضور حفلة موسيقية. كانت مارغريت قد أعطتها بطاقتها لأنّها تحب الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية.

عندما أقفلت باب الشقة ومشت نحو المصعد، شكرت بولا شقيقتها في سرها لأنّها لم ترسل معها مرافقاً كالعادة.

راحت تفكّر وهي واقفة أمام المصعد هل تذهب إلى المسرح بسيارتها أم بالتاكسي... أخيراً قرّرت أن تذهب بسيارتها لأن الطقس سيء وبارد.

كانت مأخوذة بأفكارها، لذا لم تشعر عندما انفتح باب المصعد بأن فيه أحداً، حتى سمعت فجأة صوتاً مألوفاً يقول لها: مساء الخير.

ارتبكت قليلاً ثم نظرت إلى عيني ماتيو ستراتون الضاحكتين.

لم تشاهده منذ بضعة أسابيع، فتعجبت وهي تنظر إليه وقالت في نفسها كم يبدو طويلاً! كان يرتدي معطفاً واقياً من المطر فوق بذلة سوداء. بدا أنيقاً أسمر البشرة، ربّما لأنه تعرّض إلى الشمس طوال العطلة.

ـ تبدين رائعة! لقد زاد وزنك كما يبدو.

«أجل» ثم أردفت ضاحكة: إنني مترددة، لا أدري كيف أذهب إلى مركز كنيدي بسيارتي أم بالباص؟ ما رأيك؟

ـ لا تخبريني أنك ذاهبة إلى مقصورة وليم.

نظرت إليه بتعجب: هل أنت ذاهب أيضاً؟

أومأ برأسه. فقالت بغضب:

ـ تباً لمارغريت! ظننت لوهلة أنها قد توقفت عن ألاعيبها.

وصل المصعد إلى الطابق الأرضي. فخرجا ووقفا وجهاً لوجه.

ـ هل اتخذتك مرافقاً لي هذه الليلة؟

ـ لقد دُعيتُ بمفردي.

عضت بولا على شفتيها من الغيظ وقالت: «ذات يوم سأقتل هذه الشقيقة بيدي».

ـ قد تكونين مخطئة. أعطاني وليم البطاقة لأنه يعرف أنني أحبّ الموسيقى. أعتقد أنها صدفة.

نظرت إليه بغيظ:

ـ هل تعتقد ذلك فعلاً؟ حسناً، لن أذهب.

وحاولت أن تطلب المصعد للرجوع إلى شقتها.

ـ تعالي، ما الضرر من ذلك؟ هل تخجلين من الظهور برفقتي؟

ـ طبعاً لا، ليس هذا هو الموضوع.

ـ ربما أكون أكثر حرصاً على سلامتك من ديفيد وبات أو من سائر الشبان الأنيقين الذين تؤمّنهم شقيقتك لمرافقتك.

ضحكت بولا، وانفتح باب المصعد فتقدمت إلى داخله

تقول:

ـ ما زلت أرفض الذهاب. أنا تعبة لأنني أصبحت ألعوبة بيد شقيقتي، على كلٍّ باستطاعتي أن أجد مرافقاً لي.

ـ أنا واثق من ذلك.

كان قد وضع كتفه في مواجهة باب المصعد ليظل مفتوحاً.

ـ تعالي! كوني رياضيّة، ألا تحبين الموسيقى؟

ـ بالطبع أنا أحب الموسيقى... لماذا برأيك أخرج في هذه الليلة الباردة؟

ـ سيعزفون هذا المساء الكونشيرتو الثاني «لهايدن».

رفعت نظرها إليه، يبدو أنه يريد منها أن تذهب. على الأقل ستحلُّ مشكلة النقل.

خرجت من المصعد وهي تقول: «حسناً! لكنني لا أريد بذلك أن أمنح السرور لشقيقتي».

ـ أنت مخطئة! أعتقد أنها مجرد صدفة.

ـ أنت تمزح فأنت لا تعرف الاعيب مارغريت.

رغم الشك الذي ساورها بخصوص شقيقتها، قالت بولا في نفسها: لا بأس، فأنا أحب الموسيقى كثيراً... كان هناك ثمانية أشخاص آخرين في المقصورة. جلست مع ماتيو في المقاعد الخلفية وهي تشعر بالتوتر لكن عندما بدأ العزف، انسجمت ونسيت كل شيء.

تأثرت كثيراً بالموسيقى وأخذت الدموع تترقرق من عينيها راحت تفتش في جيوب معطفها عن محرمة لتمسح دموعها فلم تجد... شعرت بماتيو ينحني نحوها ويلمس يدها بلطف،

فنظرت إلى الأسفل لتجد محرمة بيضاء في يده فابتسمت له وأخذت المحرمة ومسحت دموعها.

خلال الاستراحة خرجا من المقصورة وتمشيا في الردهة الكبيرة.

ـ هل تريدين بعض العصير؟

ـ أجل من فضلك. سأذهب لأصلح ما تضرر من زينتي.

ـ لا تهتمي! أنت على ما يرام... كانت دموعاً صادقة.

ـ لا بأس، سأذهب.

واختفت داخل الجمهور.

وقفت أمام المرآة وراحت تضع حول عينيها المتوهجتين بعض البودرة. خجلت من نفسها لأنها تركت ماتيو يلاحظ أنها عاطفية، لكنّه يدرك بالتأكيد تأثير الموسيقى على الشخص المرهف الإحساس. أصلحت هندامها وتأملت شكلها في المرآة فوجدت أنها تبدو أفضل بكثير مما كانت عليه منذ شهرين. لقد امتلأ جسمها واكتنز.

لدى عودتها رأت ماتيو جالساً في مقصورة الشراب وفي يده كوبان من المرطبات وينظر إلى البرنامج. عندما تأملته أحسّت بسرور خفيّ لأنّ ذلك الرجل المديد القامة الأنيق الأسمر الوجه كان مرافقها. ليس لأنّها تشعر بأي شيء شخصي نحوه بل لأنها تستريح وتطمئن له، فهو لا يقوم بأية حركة منافية للأدب ولا يتحرّش بها ولا يحاول أن يغازلها. إنّه رجل مستقيم.

قدّم لها العصير وأشار إلى البرنامج بيده: هل قرأتِ الجزء الثاني من الكونشيرتو؟

تناولت البرنامج وراحت تقرأه وهي تحتسي كوب المرطبات. وحاولت أن تخفي اشتياءها عندما قرأت كلمة «بارتوك». فسألها:

ـ ما رأيك به؟

ـ بصراحة، أنا أكره بارتوك.

ـ حسناً، هل أنت جائعة؟ أعرف محلاً متخصصاً بالشوكولا. ما رأيك بهذا العرض؟

ـ لقد عرفت سرّ ضعفي، أنا أحب كثيراً الشوكولا.

ـ إذن ارتشفي كوبك وتعالي نخرج من هنا.

وجدا طاولة فارغة في محل الشوكولا الصغير، وطلبت بولا قطعة كاتو بالشوكولا وطلب ماتيو شوكولا مع الكريما.

قالت له بولا وهي تبتسم:

ـ تكاد تسكرني هذه الرائحة الذكية. لقد أفسدتني. لم أعلم قط أنّ هذا المحل موجود علماً أنني عشت طوال حياتي هنا.

كان ماتيو جالساً وقد أسند ظهره إلى الكرسي وهو يستمع إليها ويحتسي قهوته والابتسامة على وجهه.

قال لها وهو يتناول آخر جزء من الشوكولا:

ـ عليك أن تحفظي الأمكنة. أنا لا أسمح لنفسي بالسير في هذا الشارع في أغلب الأوقات.

ـ أنت تتمتّع بإرادة قوية أكثر مني.

راحا يحتسيان القهوة بصمت. بعد لحظات قالت له بولا:

ـ أرى أنك قد تعرّضت للشمس كثيراً.

ـ أجل، فأهلي يمضون فصل الشتاء في بالم بيتش في فلوريدا. وهم معتادون على تمضية الأعياد معاً.

- يروقني ذلك كثيراً، فأنا أكره البرد. كان الطقس زمهريراً في عيد الميلاد.

- أما في فلوريدا فكان الطقس دافئاً والشاطىء هناك لا يُقاوم. ولكن الإنسان ينسى روح الميلاد في طقس جميل تصل الحرارة فيه إلى ٢٨ درجة.

ضحكت بولا: «لم أجرّب ذلك».

ثم سألته:

- ذكرت أنك أمضيت العطلة مع العائلة.

- أجل، لدي شقيق يكبرني سناً وهو متزوج وله طفل. يدير أملاك العائلة في ماريلاند ويهتم بزراعة الأرض وبتربية الماشية وتأصيل الأحصنة والعناية بالأشجار المثمرة كالتفاح.

- يبدو ذلك رائعاً، هل ترعرعت هناك؟ أحسدك على ذلك، لأنني نشأت وترعرعت طوال حياتي في المدينة... كان والدي موظفاً حكومياً. يبدو ذلك تقليداً في العائلة، فأنا ومارغريت تزوّجنا موظفين في الدولة.

قال بتردد:

- زوجك كذلك؟

- أجل كان ريتشارد يعمل في قسم وزارة العدل مع وليم.. هكذا تعارفنا.

تمتم بصوت خافت: كيف تشعرين الآن؟ هل هناك بعض التحسّن؟

- أجل أنا أفضل حالاً. لقد مرّت ذكرى السنة الأولى على غيابه بدون أن أنهار أو أمزّق نفسي.

- إذن أحسنت التصرف أكثر مني.

- يتصرف كل شخص بطريقته الخاصة.

نظر إليها نظرة امتنان وقال لها:

- فكرت في الاتصال بك مراراً منذ اعتذرت منك على سوء فعلي.. تلك الليلة تفهمت وضعي واحتفظتِ بهدوئك ولكنني كنت خائفاً...

- أجل فهمت، أخفت أن أعتبر ذلك حجّة لغاية شخصية؟

أومأ برأسه.

ابتسمت..

- ماتيو أرجو أن تفهم ما سأقول! رغم الاعيب شقيقي فأنا آخر امرأة في واشنطن قد تحترس منها بهذا الخصوص.

نظر إليها نظرة عميقة كئيبة فتورّد وجهها وتساءلت إذا كانت قد أهانته أو جرحت عنفوانه؟ وتمنّت ألا يكون كذلك، وشعرت فجأة بأنها تعزّه كثيراً وتشعر بالراحة والاطمئنان وهي برفقته.

- أجل الاحظ ذلك. لقد تأخر الوقت، هل يمكننا الذهاب؟

عندما استلقت في فراشها ذلك المساء، تساءلت بولا إن كانت قد جرحت شعور ماتيو بكلامها؟ فقد لزم الصمت طوال الطريق وبدا منزوياً أثناء القيادة وفي المصعد وأمام باب شقتها عندما ودّعها وشكرها على السهرة الجميلة.

في الصباح الباكر، رنّ جرس الهاتف وكانت تتناول فطور الصباح. بدا في صوت مارغريت بعض الراحة.

- سمعتُ أنك كنتِ أمس برفقة ماتيو ستراتون.

- لم أكن معه، لقد التقيت به في المصعد ووجدنا أننا نذهب

إلى الحفلة ذاتها. على فكرة، يا شقيقتي العزيزة هل كانت تلك إحدى مؤامراتك لتجمعينا؟

ـ لا، أقسم بشرفي يولا، لا علم لي بذلك. بل لم أعرف حتى أنّ وليم أعطاه بطاقته. كان ذلك محض صدفة، فأنا تعلّمت امتولتي.

مارغريت لا تتراجع أبداً عندما تُتّهم. يظهر أنّها صادقة هذه المرة، بعد استراحة قصيرة كانت تتكلم خلالها مارغريت مع شخص في المنزل، أردفت قائلة:

ـ حسناً يا شقيقتي، ألن تخبريني بما حدث معك؟

ـ ليس هناك ما هو مهم. أقلّني بسيارته إلى الحفلة هذا كلّ شيء.

ـ لا تحاولي التهرب. أخبرتني ببريل هارميتاج أنكما كنتما معاً في فترة الاستراحة.

ـ أجل غادرنا باكراً لأن كلانا لا يحب بارتوك، هذا كل شيء. أرجوك، عليّ الآن أن أباشر في عملي.

ـ عمل! عمل! عمل! هذا ما تفكرين فيه دائماً.

ـ لو كانت معيشتك وقف عليك لاهتممت مثلي بعملك. في شتى الأحوال سأتكلّم معك لاحقاً.

بعدما أقفلت الخط ذهبت إلى غرفة الحمام لتغتسل وهناك لعنت ببريل هارميتاج وكل اللواتي على شاكلتها لأنهن يشبهن مكتب الاستخبارات في جمع معلوماتهن.

كانت على وشك الانتهاء من تجفيف جسمها وارتداء ثيابها، عندما رنّ جرس الهاتف من جديد فأسرعت إلى غرفة الجلوس

وأمسكت السمّاعة. سمعت صوتاً نسائياً يناديها: السيدة وارنغ، هنا مكتب السناتور ستراتون، لحظة من فضلك! بعد لحظة من السكون سمعت صوت ماتيو على الخط.

ـ يولا، أنا ماتيو.

ـ أجل ماتيو.

جلست على طرف المكتب وهي تتساءل عما يريده منها ليطلبها في هذه الساعة الباكرة.

ـ هل يمكنكِ المجيء إلى المدينة لتناول طعام الغداء معي؟

تردّدت في الجواب، أرادت في بادىء الأمر أن ترفض لأنها تفضّل أن تبقى متحفظة مع الرجال كما أنها لا تريد أن تكون لقمة سائغة للإشاعات المُغرضة في مجتمع واشنطن. لكنّها في نفسها تعزّ هذا الرجل وتحبّ رفقته وتلاحظ أنّه يريد هذه الصداقة البريئة. سمعت صوته من جديد يردّد:

ـ يولا! هل أنتِ على الخط؟

ـ أجل ماتيو، آسفة، كنت أفكّر، سأكون مسرورة بتناول الغداء معك.

ـ ما رأيك بالساعة الواحدة؟

ـ سيكون ذلك جيداً.

ـ أراكِ لاحقاً.

ثم أقفل الخط.

* * *

٤ ـ الأرملة المحاصرة

كانت الصالة شبه فارغة، إلا من بضعة رجال يتناولون طعامهم وهم منهمكون في حديث عميق.

جلست مع ماتيو إلى مائدة قرب النافذة تطلّ على بناء الكابيتول وتشرفُ على سائر المنطقة هناك. راحا يتحدثان عن الحفلة الموسيقيّة ليلة أمس وعن قضايا أخرى عامة غير شخصية.

كانت رفقة ماتيو ممتعة فمع أنها عادة لا تهتم بالسياسة، فقد استمتعت بحديثه. طريقة ماتيو في الحديث مشوّقة وهو في الوقت نفسه مستمع جيد يصغي بدقّة إلى كل ما تخبره إياه عن عملها بدون أن تلاحظ عليه أي تململ.

ساد الصمت قليلاً وهما يحتسيان القهوة فقالت في نفسها ربما يدرس أخلاقي وشخصيتي، وأخذت تتساءل إذا كان هنا شيئاً غير منتظر بعد هذه الدعوة المفاجئة، لكنّها لاحظت وهي تتأمله أنّه يفكّر في غرض معيّن. أطفأ سيجارته وانحنى نحوها وقال لها بنبرة رزينة هادئة:

ـ أنت تتساءلين بلا شك عن السبب الذي دفعني لدعوتك إلى الغداء هذا النهار؟

أجابته باقتضاب:

ـ نوعاً ما.

ـ هناك عرضٌ أريد أن أطرحه عليك.

لاحظ قلقها وارتباكها، فتابع:

ـ ليس ذلك النوع من العروض التي تفكرين فيها.

انتظرت بولا بفارغ الصبر ما يحاول أن يعرضه عليها. ظلّتْ صامتة، فأضاف بهدوء:

ـ أنا وأنت لا نعرف بعضنا بعضاً جيداً، لكن خلال مدة تعارفنا القصيرة رأيتُ أنّ بيننا شيئاً مشتركاً.

ثم سكت، فقالت: امضِ في حديثك. ما هو هذا الشيء؟

ابتسم ثم أردف: فلنقل إن كلانا ضحية صدمة عاطفية. لا أدري كيف أعبّر عن ذلك.

ـ بالعكس أنت تُبلي حسناً في كلامك، لكن ماذا بعد؟

ـ حسناً، أظنك تعبتِ كثيراً من الرفقة غير المناسبة كما هي الحال معي.

ـ أجل كما تعبتُ أنت من النساء اللواتي يُردن امتلاكك.

ابتسم وقال: «هذا هو التعبير الصحيح».

استرخت بولا قليلاً بعد هذه المقدمة وقالت له:

ـ لن تستطيع مارغريت دفعهن نحوك إلى الأبد.

ـ لا، هناك أيضاً أشياء عديدة بديلة مشوقة لملء هذه المهمة. أحياناً أتساءل متعجباً: هل الرومنسية هي همّ النساء الوحيد؟

ضحكت بولا وهي تقول له: ربما لها الأولويّة عندهن. حسناً ما هو اقتراحك؟ هل نوحّد جهودنا لوضع حدّ لذلك وننشر إعلاناً

في جريدة «واشنطن بوست» أقدر أن أتصوره هكذا: «يطلب السيدة وارنغ والسناتور مانيو ستراتون بكلّ احترام من كل صانعي وسماسرة الزواج التوقّف فوراً عن هذا التصرف». هل هذه فكرتك؟

ضحك بمرح: أوه، ليس بهذا الشكل العنيف، بل أقترح أن نوحّد جهودنا..

ثم قال لها برصانة:

ـ بولا، أخبريني بصراحة، هل تعتقدين أنّك لن تقعي في الحبّ ثانية؟ وأنّكِ لن تتزوجي أبداً؟

سارعت تجيب: لا، أبداً.

أجابها برقة: أبداً هو وقت طويل. لكنك امرأة فتية وجذّابة جداً.

تجهّم وجهها وقالت له بانقباض:

ـ ريتشارد كان كل شيء في حياتي، العالم، والشمس، والقمر والنجوم... عندما مات، مات معه جزء مني، لذا أي شخص آخر أقابله هو فقط ظلٌّ شاحب له. آسفة، أريد منك ومن سائر الناس أن يتفهّموا ما أعني.

ـ أوه! أنا أتفهّم ذلك جيداً. لا تقلقي فأنت لم تجرحي كرامتي وعنفواني... أفهم ما تشعرين به بوضوح، فقد أحببت أنا وبيت بعضنا بعضاً منذ الطفولة. كان أهلها جيراننا وكانت هي كلّ شيء بالنسبة لي، لذلك أشعر أنّها لا تزال حيّة.

سألته بولا:

ـ كيف توفّاها الله؟

ـ السرطان... قضى عليها بعد ستة أشهر فقط من تشخيص المرض.

قالها وهو يكاد يحترق من الغيظ والحزن. بعد ذلك ارتد نحوها وهو يحاول الابتسام:

ـ حدث كلّ ذلك بسرعة، مضى على وفاتها سنتان ومع ذلك ما زلت أعيش تحت تأثير هذه الصدمة، آسف!

ـ أعرفُ شعورك جيداً، أرجوك لا تعتذر.

حاول أن يستعيد رزانته: «حسناً يبدو أننا متفاهمان ما رأيكِ بعرضي؟»

ـ لم أعرف حتى الآن ما هو عرضك.

ـ حسناً، كما سبق وقلت: نوحّد جهودنا.. لا يمكن لأيٍّ منا أن يتلافى مجتمع واشنطن. وبسبب وضعي، كوني عضواً في مجلس الشيوخ وبسبب وضع عائلتك نحن واقعان في المشكلة ذاتها.. ربما يكون ما أفكر فيه صائباً. أنتِ بحاجة إلى مرافق، وأنا أيضاً بحاجة إلى مرافقة.. باستطاعتنا أن ندع هؤلاء الناس يعلمون ويقتنعون أنّ علاقتنا مقتصرة علينا فقط، فيخفّ عندئذ الضغط عنا.

ساور الشك بولا فهي لا تدري أيّ نوع من العلاقة يفكّر فيها.

لاحظ مانيو ما يدور بخاطرها فأضاف:

ـ طبعاً، ستكون علاقة صداقة بحتة.

تمتمت:

ـ بكلّ تأكيد.

راحت تفكر في اقتراحه.. رأته يشعل سيجارة أخرى وسكت

بهدوء مفسحاً لها المجال لتتخذ قرارها. لا تظن أن وراء اقتراحه خلفيات أخرى، بدا لها صادقاً لذا لم تحبّ أن تجرح شعوره. أخيراً أجابته:

ـ لمَ لا؟

ظهر عليه الراحة: حسناً، فلنبدأ بهذا منذ الليلة، بيريل هارمنياج دعتني لحضور حفلة خيرية في فندق «ماي فلور».

نظر إليها بتساؤل: هل تلقيت دعوة أيضاً؟

ـ أجل، لكنني أعتقد أنّ بيريل تريد من وراء ذلك أن تجمعني بابن أخيها وهو موظف في دائرة الدفاع. لقد خرجتُ معه سابقاً، له عشرة أيادٍ، وهو يعتقد أنّ كل امرأة تخرج معه إنما تفعل ذلك سعياً وراءه.

ابتسم وقال لها:

ـ طلبتْ مني بيريل أن أقلّ ميشال لاتروب معي فأجبتها: لست متأكداً إن كان باستطاعتي الذهاب. كما تلاحظين لقد حللنا مشاكلنا، هل نذهب معاً؟

رافقها إلى سيارتها، وعندما أدارت المحرّك قال لها:

ـ سأمرّ بك في الساعة التاسعة.

في تلك الليلة، أدركت بولا وهي داخلة إلى قاعة الاحتفالات الكبرى في فندق ماي فلور متأبطة ذراع السناتور المديد القامة، أنها تقوم بتجربة مخيفة وقد بدا لها اقتراح ماثيو مضحكاً وخطيراً في الوقت نفسه.

عندما ظهر ماثيو على بابها بقامته المديدة، بدا قوياً واثقاً من نفسه وجذاباً جداً في بذلته السوداء.

أما هي فارتدت ثوباً رائعاً أحمر، بدا رائعاً عليها بعدما عادت النضارة إلى وجهها. عندما حيّاها بهدوء واقتضاب لم تجد أي وميض في عينيه الرماديتين، وعندما ساعدها على ارتداء معطفها لم تلامسها أنامله الباردة إلا للحظة عابرة. في طريقهما إلى الفندق ظلت الأفكار عن الرجال وخلفيات نواياهم تتقاذف في رأسها.

عندما وصلا إلى المدخل، أعطى ماثيو اسمه للمسؤول فطُلب إليهما الجلوس إلى الطاولة رقم ١٢. كانت الصالة مكتظة بالمدعوّين وقد بدأت الأوركسترا تعزف موسيقى ناعمة وشرع بعض الحاضرين بالرقص.

راحا يشقّان طريقهما لاستكشاف طاولتهما فشعرت بولا بالأنظار شاخصة إليهما فقد أمسك الرجل الطويل مرفقها وهو يسير خلفها. وصلا أخيراً إلى طاولتهما، فشاهدت مارغريت جالسة بمفردها هنا. أدركت فوراً أنه قد طلب مسبقاً من بيريل هارمنياج الجلوس إلى الطاولة نفسها مع وليم ومارغريت، فتقدمت ببطء وجلست إلى جانب شقيقتها.

ألقى ماثيو التحية على مارغريت ثم أخذ معطفها وذهب لإيداعه في حجرة الألبسة.

قالت بولا وهي تنظر حولها:

ـ هللو مارغريت كيف حالكِ؟ هناك عدد وفير من الناس هنا، يبدو أنّ بيريل قد دعتْ كل العاصمة إلى حفلتها.

قاطعتها مارغريت:

ـ ماذا تفعلين هنا مع ماثيو ستراتون؟

نظرت إليها بولا ببراءة:

ـ لماذا؟ أنا هنا مثلك أحضر حفلة خيرية. أين وليم؟

سألتها مارغريت من جديد:

ـ جاوبيني، ماذا بينكما؟

ـ ليس بيننا شيء! طلب مني ماتيو أن أرافقه هذه الليلة فوافقتُ. أظنك مسرورة بذلك.

ـ طبعاً أنا مسرورة. هذا ما كنت أحاول إقناعك به منذ عدة أشهر.

ابتسمت بولا، فهي تعلم أنّ مارغريت غير منزعجة من وجودها مع ماتيو. لكنها متضايقة فقط لأن ذلك لم يتم على يدها.

أسندت مارغريت ظهرها إلى الكرسي وقالت لها وعلامات الرضى والإعجاب في نظراتها:

ـ أنت امرأة قديرة! توصلتِ إلى الخروج برفقة أشهر وأشد الرجال إثارة في واشنطن.

أرادت بولا أن تكون صريحةً مع شقيقتها منعاً للشائعات:

ـ أنت تعلمين جيداً أننا تعارفنا في تلك الليلة في شهر كانون الأول عندما التقينا في حفلتك ونقلته بسيارتي في طريق العودة إلى المنزل، فنحن نسكن في البناية نفسها.

يظهر أنّ كلامها أعجب مارغريت التي كانت تبتسم وهي تصغي إلى كلامها.

توقفت الموسيقى وأخذ الراقصون يعودون إلى طاولاتهم. شاهدت ديفيد وايات برفقة ميشال لاتروب يدنوان من الطاولة وهما ينظران إليها بفضول ثم جلسا إلى جانبها بعد إلقاء التحية.

وما لبث أن وصل «آل بينفر» وأخيراً ظهر وليم وهو يمسك بيديه صينية وكان ماتيو خلفه يحمل كوبين بيديه.

وضع وليم الصينية على الطاولة وقال لها بسرور:

ـ بولا! ما أجمل أن نراك.

أجابته:

ـ هللو وليم كيف حالك؟

جلس ماتيو إلى جانبها ووضع يده خلفها على طرف الكرسي من دون أن يلامس كتفيها ثم انحنى نحوها:

ـ أعرف أنّك تحبين عصير البرتقال. أرجو أن يكون هذا طلبك.

ـ شكراً.

بعد قليل عادت الموسيقى إلى العزف، فطلب إليها ماتيو أن تراقصه. وقفت بسرور ومشتْ معه بسرعة إلى الحلبة لتبتعد عن العيون التي كانت تراقبها على الطاولة.

أخذ يراقصها، حريصاً أن يظلّ على مسافة صغيرة منها. نظر إليها وهو يبتسم:

ـ توشك أصعب مرحلة أن تنتهي، لا تقلقي فنحن الآن نمنحهم المجال ليثرثروا وعندما نعود إلى الطاولة يكون كل شيء قد انتهى، يكونون قد اعتادوا على رؤيتنا معاً.

أجابته وهي مرتبكة: «أرجو أن تكون على حقّ».

ـ أنتِ تتضايقين من الخداع. أليس كذلك؟

أومأت برأسها: أعتقد ذلك. ربما كانت مارغريت امرأة قوية لكنها في الحقيقة تهتم بي، لذا لا أحب أن أخدعها هي ووليم.

ـ حسناً لا تكذبي عليهما! دعيهما يتصوران ما يريدان بخصوصنا.

أصبحت الحلبة مزدحمة بالناس فشعرت بولا أن الراقصين خلفها يدفعونها نحو ماتيو وشعرتْ من دون أن تدري أن جسمها يقترب من قامته المديدة. فجأة شعرت أن تلك المودّة غير المنتظرة تخلق عندها شعوراً غريباً.

استعادت بسرعة تلك اللحظات الغامضة المثيرة التي قضتها معه في تلك الليلة عندما أقلته بسيارتها ورافقته إلى شقته. تذكرت كيف غمرها وعانقها، وكم تعجبت من قوة شعورها هذا. تراجعت إلى الوراء بصعوبة ونظرت إليه فوجدته هادئاً، ساكناً رزيناً وكأنه لم يتأثر بتلامسهما.

قالت له: «هل يمكننا العودة إلى الطاولة؟ هذا الازدحام يرهقني».

استراحت بعض الوقت ثم رقصت مع وليم الذي بدا مسروراً لأنها أخيراً خرجت من قوقعتها. بعد ذلك راقصها «ديفيد وايات» لكنه هذه المرة تصرّف باحترام ورزانة. ربما كان متأثراً باستيلائها على الرجل المتملّص من النساء ماتيو ستراتون.

لاحظت بولا وهي جالسة إلى الطاولة، النظرات العدائية التي رمقتها بها ميشال لاتروب التي ارتدت ثوباً ذهبياً مكشوفاً رائعاً وأرخت شعرها الذهبي على كتفيها متعمدة الإغراء والإثارة.

كان ماتيو طوال السهرة شديد الانتباه ولطيفاً، يتحدث بحرية مع الآخرين. وقد رقص مداورة مع كل النساء الموجودات على الطاولة. كان مسترخياً على غير عادة وهي أحست أيضاً أنها منذ

وفاة ريتشارد لم تشعر قط بهذا الاسترخاء في المناسبات الاجتماعية. بدا لها أنّ الحاضرين قد تقبّلوا هذه العلاقة الظاهرية بينها وبين ماتيو واعتادوا عليها بسرعة.

كانت تنظر إليه من وقت لآخر بإعجاب وهي تفكّر بالشعور الغريب الذي أحسّت به عندما تلامسا وهما يرقصان. لاحظت أنّ عصبيتها التي كانت تشعر بها في الحفلات الاجتماعية قد اختفت، ورأت أنّ ماتيو أيضاً لم يكن بائساً ومنزوياً بل كان تصرّفه ممتازاً. وظلّ طوال السهرة يعاملها بلطف واحترام.

سألته وهما داخل المصعد إذا كان قد لاحظ ردّة فعل مارغريت وطريقة حديثها عندما رأتهما معاً في مستهلّ الحفلة.

أجابها وهو يبتسم:

ـ بالتأكيد لاحظتُ ذلك، مسكينة مارغريت.

وصلا أخيراً إلى باب شقتها فوضعت المفتاح في الباب. عندما نظرت إليه شعرت فجأة بالخجل، إنها لحظاتٌ مربكة فها هي الآن في آخر الليل وجهاً لوجه معه أمام شقتها.

لاحظ ارتباكها فقال لها بسرعة:

ـ حسناً يولا طابت ليلتكِ كانت سهرة ممتعة.

تمتمت:

ـ أجل كانت كذلك شكراً جزيلاً لك.

تركها وذهب من دون أن يضيف كلمة أخرى.

عندما تركها بمفردها شعرت بخيبة الأمل بسبب انسحابه المفاجىء. لكنّها تساءلت أليس هذا ما تريده شخصياً؟ قالت في نفسها: ربما أشعر بأن كبريائي جرحت لأنني بكل بساطة غير

معتادة على هذه اللامبالاة.

دخلت إلى غرفة النوم وجلست على طرف السرير ونظرت إلى صورة ريتشارد الموجودة أمامها على الطاولة. كانت الابتسامة في عينيه السوداوين والطلة الساحرة في وجهها. الآن تعجبت كيف ظنّت عندما شاهدت ماتيو لأول مرة أنهما متشابهان، ربما كلاهما مديد القامة، قوي البنية، أسود الشعر، لكنهما يختلفان كل الاختلاف كرجلين. كان ريتشارد في أوائل الثلاثين من عمره، أما ماتيو فيناهز السادسة والثلاثين وكان ريتشارد شاباً ساحراً جذاباً منفتحاً، بينما ماتيو رجل متحفظ رزين يضحك نادراً ولكن ليس بعينيه.

شعرت بالحزن يتسرّب إلى قلبها وتمنّت من كلّ قلبها لو كان ممكناً من جديد أن يغمرها ريتشارد بذراعيه. كانت حياتهما سعيدة جداً فقد كان زوجها الحبيب ورجل حياتها الوحيد.

اضطربت عندما ظهرت أمامها فجأة صورة ماتيو ستراتون الصارمة القوية المؤثرة التي تفرض نفسها. واستغربت الفكرة التي راودت رأسها أنّ هذا الرجل، سيكون حبيباً أكثر تطلباً واستئثاراً من زوجها الشاب.

لقد قال لها بكلّ بساطة في عرضه الأساسي: انّ علاقتهما ستكون دفاعاً مشتركاً ضد أشراك المتطفّلين فهي وسيلة توافق اجتماعي وهذا كل شيء.

خلال الأسابيع التي تلتْ كانت بولا ترى ماتيو على الأقل مرةً في الأسبوع عندما يكون في العاصمة. إنّه بحكم مركزه السياسي والاجتماعي، مضطرّ أن يقوم بأعمال عديدة وأن يسافر ويغيب

لعدة أيام أحياناً.

بالرغم من غيابه كان اتفاقهما يحميها من المتطفلين، فقد أصبح معروفاً في المجتمع السياسي في واشنطن أنّهما رفيقان متلازمان، وأصبحت علاقتهما حقيقة مقبولة عند كل الناس.

وجدت بولا في هذه الحماية سنداً كبيراً، فمنذ الآن أصبحت غير مضطرة لتقديم الاعتذارات لمارغريت لتتحاشى رفقة الشباب الذين كانت شقيقتها تدفعهم إليها في محاولةٍ منها لجعلها تتزوج مرة ثانية. في غياب ماتيو بات بمقدورها الذهاب إلى الحفلات من دون مرافقة ومن دون أن تُغيظ مارغريت، فأعضاء مجلس الشيوخ في واشنطن يحتلون المرتبة الأولى سياسياً واجتماعياً. وارتباطها الظاهري مع ماتيو حماها من تطفل الرجال الذين يفتشون عن اللهو وتمضية الوقت.

راحت تظهر برفقة ماتيو في كل المناسبات السياسية والاجتماعية. لم يخرجا قط في الخفاء أو في مواعيد شخصية، بل لم تطأ قدماه شقتها منذ اتفقا على هذا الاتفاق الضمني.

على الرغم من مرور ثلاثة أشهر على علاقتهما التي توثقت، شعرت بولا بأنّها لا تزال تجهل شخصيته كلياً وكأنها تتعرّف إليه للمرة الأولى. تعرف أنّها تعزّه وتحبّ أن تكون معه، ولكنه قد وضع حواجز حوله وهي فعلت ما فعله أيضاً. يجب عليها أن تتقبّل ذلك، وهي راضية عن الأوضاع كما هي الآن. لكنه ما يزال يفتقد إلى زوجته، وعندما تستعيد أحياناً ذكرى تلك الليلة في شقته وكيف ظنّها «بيث»، يصعب عليها أن تصدّق أنّ هذا الرجل الغريب المنعزل هو نفس الإنسان الذي ضمّها إلى صدره بشغف

عميق.

هذا شهر نيسان قد طرق الأبواب... قد أطلّ الربيع أخيراً وتفتّحت البراعم والأزهار وأصبح الطقس مشمساً ودافئاً، وارتدت النساء في شوارع واشنطن الثياب الصيفية.

جاءت مارغريت إلى المدينة نهار الاثنين للتبضع فدعتها بولا إلى تناول طعام الغداء معها فوافقت. أرادت أن تهيّء لها غداءً في المنزل ولكنها رفضت فهي على عجلة من أمرها لتبدأ نهارها بالزيارات والمواعيد النسائية لتتعرّف إلى آخر أخبار وشائعات المجتمع السياسي في واشنطن. عندما التقت بولا بشقيقتها ظهراً راحت خلال الغداء تراقب حركات مارغريت ذهاباً وإياباً كمن تريد في جلسة واحدة التزود بالأخبار عن كل أيام الأسبوع، كانت بولا قد انتهت من تناول طعامها وبدأت بالحلوى عندما أدارت مارغريت وجهها نحوها وقالت لها فوراً:

ـ أخبريني ماذا تفعلين الآن؟

ـ كالعادة أتابع عملي. إنني أقوم حالياً ببعض التصاميم لمحلّ شهير في بالتيمور.

ـ أوه! تتكلمين عن العمل وأنا أريد أن أعرف أين صرتِ أنت وماتيو؟

ـ لقد شاهدتنا الأسبوع الفائت في حفلة آل بيتنفرز. لم يتبدل شيء منذ ذلك الحين.

ـ ماذا تعنين بذلك؟ حدّدي لي ماذا تعنين بالضبط بكلمة «لم يتبدل شيء»!

ـ أنا وماتيو مجرد صديقين ونحبّ رفقة بعضنا بعضاً.

علمت بولا أنها تسير على أرض ملغومة فغلطة صغيرة قد تفجّر ألف سؤال من جانب شقيقتها.

ـ أعتقد أن من الأفضل لكِ أن تتخطّي حدود الصداقة هذه أو أن تفتّشي عن شخص آخر لكن حدسي يقول لي إنك تخبئين شيئاً ما. هناك شيء أبعد من الصداقة بينك وبين ماتيو ستراتون.

ـ حسناً! هذا أمر يعنينا وحدنا.

ـ أوه أعلم ذلك أو قد عرفته الآن، هل من أمر جاد بينكما؟ أوه حبيبتي أنا سعيدة جداً لأجلك.

ـ أرجوك مارغريت لا تتسرعي في استنتاجاتك... لا شيء بيني وبين ماتيو، نحن صديقان فقط هذا كلّ شيء.

ـ لا أصدّقك، أنا أعرفك جيداً. لقد قمت بالشيء ذاته مع رينشارد. لم تخبريني بشيء حتى قررتما إعلان ارتباطكما. حسناً لا داعي لتقولي أية كلمة، لقد كنتِ دائماً فتاة كتومة.

قالت لها بولا بصوت ضعيف: «إنني أخبرك الحقيقة».

وقفت مارغريت وغمرتْ بولا بعطفٍ وحنان:

ـ حسناً حبيبتي، أريد منك أن تكوني سعيدة. لا تقلقي، لن أتدخل أبداً في شؤونك... سنحبه كثيراً أنا ووليم. إذا رغبت في الزواج في شهر حزيران أقمنا لك حفلة رائعة في حديقة منزلنا.

ـ أرجوكِ مارغريت أنت تغرقين في أفكارك. أرجوك صدقيني أرجوك.

ـ بالتأكيد حبيبتي لا تتفوهي بكلمة أخرى أنا مضطرة إلى الذهاب... لدي ضيوف على العشاء ولدي مليون عمل أقوم به.

تناولت بولا هذا المساء طعاماً خفيفاً وجلست في المطبخ

تقرأ جريدة المساء... إنها عادة تقرأ الصفحات التي تتناول التصاميم والأزياء فقط وبعض أخبار المجتمع ولكنها لمّا تصفحت تصاميم إحدى منافساتها، وقع نظرها فجأة على اسمها يتصدّر العنوان الرئيسي في الصفحة التي تتناول الأخبار الاجتماعية في واشنطن والشائعات المغرضة والكاذبة، وهذا نصه:

«واشنطن بأسرها تنتظر على أحرّ من الجمر متى تقرع أجراس الفرح بين سيناتور ولاية ماريلاند الساحر ورفيقته الدائمة الأرملة الفتية الفاتنة يولا وارنغ. السيدة وارنغ هي شقيقة زوجة وليم شندلر، أحد الأعضاء البارزين في مكتب الرئيس الشخصي».

شحب وجه يولا وهي تقرأ هذا المقال. هذا المقال خطير، أليس ذلك اعتداء على الخصوصية الشخصية؟ شعرت أنها عارية معروضة بإذلال. لكن ماذا تفعل؟ هل تتصل بالجريدة وتطلب سحب المقال؟ فكّرت: لا يمكن لمارغريت أن تفعل ذلك.

لن يفيد الاتصال بالجريدة، لقد وقعت الفضيحة والضرر. قالت في نفسها: أود أن أخنق هذا الواشي الكذّاب، إنهم يجعلون الناس ضحايا أكاذيبهم ويحطمون سمعتهم ويفسدون العلاقات البريئة. هذه أسوأ لحظة وصلت إليها، ها أنّ اتفاق ماتيو قد تلوث وانهار!

لن تقدر بعد اليوم على الظهور معه. فالآن كل شخص في واشنطن يظنّ أن بينهما علاقة ما. لقد تدمرت حياتها، وسيؤذي ذلك أيضاً مركز ماتيو ومستقبله السياسي.

رنّ جرس الباب فهرعت تفتحه. كان ماتيو واقفاً هناك بوجهه الوقور والجريدة في يده.

قالت له بمرارة: أعلم أنك قرأته. أدخل.

ارتدت نحو غرفة الجلوس وهي تسمع وقع خطواته خلفها. نظرت إليه بغيظ فلم تر في قسمات وجهه وفي عينيه الرماديتين الصخريتين تعابير محددة.

- أعلم بماذا تفكر ولكنني متأكدة أنها ليست مارغريت، أستغرب كيف تقف هنا هادئاً فيما سمعتنا في الوحل.

- هدئي روعك يولا، فلنتكلم عن ذلك. هل أستطيع الجلوس، هل لديك بعض العصير؟

جلس على الأريكة وفتح الجريدة وراح يقرأ.

ذهبت إلى المطبخ وحضّرت لهما معاً كوبين من عصير البرتقال وهناك راحت تفكر في أن ردّة فعلها تجاوزت الحد اللازم. حملت كوبي العصير وعادت إلى غرفة الاستقبال وجلست قربه بعدما أعطته كوبه، وراحت تنتظر ماذا سيقول.

احتسى جرعة كبيرة من العصير وارتدّ إليها:

- كنت أنتظر شيئاً من هذا النوع... راح عدة أشخاص أخيراً يسمعونني بعض الأقاويل عن وضعنا.. عن علاقتنا.

اعترضت:

- ولكن ليس بيننا علاقة. أنت سناتور أليس بإمكانك أن تتصل بهذا المفتري وتطلب منه سحب هذا المقال وتقديم الاعتذار؟ الرفيقة الدائمة؟ هل تعلم ماذا تعني هذه العبارة؟

- أجل أعرف ما تعني.

وقفت يولا بعصبية وراحت تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، ثم قالت له بغيظ:

ـ لقد انفجر كلّ شيء. عندما وافقت على اقتراحك، لم أفكّر أنّ الناس سيعتقدون أننا.. أننا حبيبان. تعذبت كثيراً منذ وفاة ريتشارد لأحافظ على سمعتي وشرفي خصوصاً في هذه المدينة. وعلى الأخص عندما يكون عندك شقيقة ترمي الرجال عليك والآن..

قال لها بصوت آمر:

ـ اجلسي يولا.

سكتت ثم نظرت إليه وقد صدمتها نبرة صوته.

عاد وقال لها بصوت لطيف:

ـ أرجوك..

أطاعته وجلست إلى جانبه وأخذت تحتسي عصيرها.

أخيراً قال لها:

ـ أعتقد أنّ لدي حلاً: فلنتزوّج!

* * *

٥ ـ زواج مع وقف التنفيذ

رفعت يولا رأسها عن الكوب الذي كان بيدها وحدّقت إليه بتعجب:

ـ نتزوج!! أنت تمزح بلا شك، كيف يمكننا أن نتزوج؟

ـ المسألة بسيطة نأخذ تصريحاً ونتزوج.

ـ ليس هذا ما أعنيه!

ـ أعلم ما تعنين.

وضع كوبه على الطاولة، كان رأس يولا مشوّشاً ومضطرباً: نتزوج!! ماذا يعني بذلك؟ المقال الصغير البذيء في الجريدة هو شيء والحياة طوال العمر مع رجل لا تحبّه ولا يحبّها هو شيء آخر. أخذت تلملم أفكارها لتتكلم بهدوء.

ارتدّ ماتيو ونظر إليها بهيبة ووقار:

ـ هل هذا ما تريدينه يولا؟ هل تريدين أن تعودي إلى مشاحناتك مع شقيقتك وتدخلاتها المُحرجة؟

ـ حسناً، لا أريد ذلك لكنني غير قادرة على المضي في هذا الطريق.

ـ قبل أن تتخذي قرارك سأشرح لك بوضوح ماذا يدور في رأسي.

شعرتْ أنها وصلت إلى وضع معقّد يصعب عليها حلّه. نظرت إلى ماتيو الذي بدا أنّه غارق في تفكير عميق، فهو لا يتسرّع ولا يتصرّف من دون تعقّل.

راحت تفكّر كيف سيكون زواجها بهذا الرجل المديد القامة والبارد والغامض، ماذا ينتظر منها؟ هل يريد أن يسلبها حريتها؟ أخيراً تمتمتْ بضعف:

ـ أرجوك قل لي بماذا تفكّر؟

ـ ما يدور برأسي هو بالحقيقة تمديد لاتفاقنا الأساسي. بنظري كانت الأمور على ما يرام، حتى ظهر هذا المقال. هل أنت موافقة على كلامي؟

ـ أجل أنا موافقة!

رفع يده وقال لها:

ـ أريد منك أن تعرفي ما أشعر به قبل أن تتخذي قرارك. لا أرى أنّ باستطاعتي الوقوع في الحب ثانية، وقد أخبرتك بذلك في السابق لكنني بحاجة إلى زوجة نظراً للمركز الذي أتبوأ. هذا لا يعني أنّ دمي بارد، لقد بدأت أتعلّق بك كثيراً وأحب رفقتك. نحن نحبّ الأشياء ذاتها ولنا نظرة متشابهة إلى الحياة، وخلفياتنا متشابهة أيضاً. وإذا كان تقديري صحيحاً، أرى أنّك غير مهتمة بالوقوع في غرام جارف وهذه هي حالي أيضاً.

صمت وهو ينظر إليها متسائلاً. أجابته فوراً:

ـ لا، أنا غير مهتمة.

هناك أمر وحيد مهمّ جداً لم يأتِ على ذكره وهي بحاجة للتأكد منه قبل أن تتخذ قرارها. سحبت نفساً عميقاً وقالت له:

ـ ماذا تنتظر مني؟

جاوبها باقتضاب:

ـ أنا لا أنتظر أية علاقة جسدية. كان ذلك جزءاً من اتفاقنا.

أجابته ببعض السخرية:

ـ ألا ترَ أنّ ذلك صعب جداً في هذا المجتمع، أمْ لعلك تخطط لعلاقةٍ ما؟

ونظرت إليه فرأتْ وجهه قد تجهّم وبدا مغتاظاً. انحنى ووضع رأسه بين يديه في محاولة لامتلاك أعصابه ثم رفع رأسه وهو يبتسم:

ـ لا، أنا لم أخطّط لأية علاقة، هل تريدين ذلك؟

ـ بالتأكيد لا، أنا آسفة، لم يكن يحق لي أن أقول ذلك.

ـ لك كل الحق في ذلك. إذا كنا سنقرّر المضي في هذه المسألة المهمّة يجب أن تكون كل الأمور واضحة وأن تتخذي قرارك باقتناع. إنه كما ترين زواج مصلحة وأنا في شتّى الأحوال لا أريد إحراجك. بعد وفاة «بيث» أدركتُ أنني كنت أفتّش عنها في النساء الأخريات ولو ظاهرياً. أردت أن أبتعد عن هذا الكابوس بالتفرغ إلى السياسة والخدمات العامة فالعلاقات تخلق لي المشاكل وتُسيء إليّ.

لم تدرِ بولا ماذا تقول له. فعرضه جديرٌ بالاهتمام، لأنها أيضاً لا تفتّش عن الحب والغرام. لكنّ الأمان والسلام ضرورتان لها، بإمكانها إذا سارت الأمور كما يجب أن تتبنّى طفلاً. مضى على وفاة ريتشارد سنة وهي مقتنعة أنها لن تقع في الحب من بعده، لكن بعد دخول ماتيو إلى حياتها شعرت أنّها لا تريد أن

تعود إلى حياتها الفارغة المؤلمة.

ليس أمامها الآن سوى خيارين: إمّا أن تتزوجه زواج مصلحة، وإما أن تقطع علاقتها به. أخيراً نظرت إليه بهدوء وقالت له:

ـ حسناً ماتيو أقبل الزواج بك.

بعد أسبوع ذهبت بولا برفقة ماتيو لزيارة شقيقتها، وهناك أخبرتها بقرارها. فرحتْ مارغريت كثيراً وأخذت تضع المخططات لتقيم لها حفلة زواج رائعة في أوائل الصيف في حديقة منزلها.

ـ أرجوك مارغريت لا أريد عرساً كبيراً، وليس باستطاعتنا الانتظار حتى تموز. فماتيو يريد أن نتزوّج في أقرب وقت.

نظرت إلى ماتيو عبر طاولة الطعام الكبيرة وقالت في نفسها إنّه عن حقّ ممثّل بارع.

قال لها وليم:

ـ أرجو على الأقل أن تدعيننا إلى حفلة الزواج... أين ستسكنين؟

ـ سأنتقل إلى شقة ماتيو، فهي أوسع من شقتي. هناك غرفة نوم ثانية يمكنني اتخاذها مكتباً لي.

كانت بولا قد اتفقت مع ماتيو على تفاصيل ترتيبات الزواج والحياة في المنزل وأصبحت مقتنعة أنها تقوم بالصواب. حرص ماتيو أن تستعمل الغرفة الكبيرة كمكتب لها وأن تتصرّف كما يحلو لها في ترتيب المنزل، فهو يريد أن تكون مستريحة في إقامتها.

تناول ماتيو الحديث ليضع حداً لعلامات الاستفهام البادية على وجه مارغريت.

ـ سيعقد أحد قضاة المجلس العدلي الأعلى الذي هو صديق

قديم للعائلة، زواجنا في كنيسة الشبوخ الصغيرة. ونحن بالتأكيد نريد منكما أن تكونا حاضرين.

لم يعجب هذا الزواج السريع والبسيط مارغريت التي قالت بامتعاض:

ـ لا يبدو لي كل ذلك صحيحاً، فعضو مجلس الشيوخ الأميركي لا يتزوّج كل يوم، وواشنطن بأسرها تنتظر هذا الحدث لتحضر حفلة العرس.

أجابها ماتيو بحزم:

ـ لن يحضر حفلة الزفاف أحد، إذ لن يعرف أحد بها غيركما وغير أخي... وبعد أن ينتهي كلّ شيء باستطاعتك بعد أسبوع أو أسبوعين أن تقيمي لنا حفلة استقبال.

كانت مارغريت خلال فترة زواجها قد حضرت وواكبتْ معظم حفلات زواج رجالات السياسية في واشنطن، وأصبحت خبيرة في شؤون الحفلات والضيافة لا يفوتها أبداً حدث اجتماعي أو حفلة خيرية في واشنطن، وهي تعلم جيداً أنّه لن يكون لحفلة الاستقبال أبداً بريق وعظمة حفلة الزواج، ولكن لا بأس بذلك.

في طريق عودتهما إلى المنزل قالت بولا لماتيو وهي تبتسم:

ـ كانت بادرة طيبة منك ماتيو إذ سمحت لها أن تُقيم لنا حفلة استقبال، إنّ هذه الشكليات تعني لها الشيء الكثير.

بعد أسبوع وكما كان مقرراً تمّت مراسيم الزواج بغياب الضيوف والصحافة. لم يكن هناك سوى مارغريت وزوجها وشقيق ماتيو وزوجته.

شعرت بولا بالعزلة تختفي من حياتها، وهي واقفة إلى

جانب ماتيو تردّد أمام رجل القضاء تعهّدات الزواج. لدى انتهاء المراسم انحنى ماتيو وعانقها بسرعة.. عندما تبادلا النظر أحسّت فجأة بعطف كبير تجاه هذا الرجل الشريف المديد القامة. ومع أنّ هذا الزواج صوريّ فقط فقد وضع تحت تصرّفها فوائد عديدة: منحها اسمه وحصانته العامة وأشركها في مهنته السياسية وفي مستقبله وفي رفاهيته. سأكون له زوجة صالحة... أعلم أنّه سيكون لي زوجاً صالحاً! فالثقة المتبادلة والصداقة هما شرطان مهمان للزواج، كالحب والغرام. لقد وقع كلاهما في الحب وخسر حبه لذا لن يخاطر أي منهما بالوقوع في حب جديد.

لن يقيما شهر عسل لأن هناك دورة لمجلس الشيوخ وماتيو مضطر إلى حضور جلساتها كل يوم علماً أنّ نزولهما في الفندق سيسبّب حرجاً لها.

بعد انتهاء مراسم الزواج دعا وليم الحضور إلى حفلة عشاء في أحد المطاعم الراقية. وانشرحت بولا كثيراً لأنها أرادت أن ترفّه عن نفسها في اليوم الأول لزواجها الجديد.

بعد العشاء غمرتها مارغريت والدموع في عينيها وقالت لها بحنان:

ـ حسناً سيدة ستراتون أتمنى لك كل السعادة.

نقلهما وليم إلى شقتهما وعندما دخلا المصعد حاولت بولا أن تضغط الزرّ على الطابق الثالث كالعادة، فقال لها ماتيو وهو يبتسم:

ـ تذكري أنك لا تقيمين هناك بعد الآن.

ـ بالتأكيد نسيتُ ذلك... ما أغباني!

صعدا إلى الطبقة السادسة ودخلا إلى شقة ماتيو أو بالأحرى إلى شقتها الجديدة وشعرت بالراحة عندما نظرت إلى أغراضها الخاصة التي رتّبتها في الأسبوع الفائت. قال لها ماتيو:

ـ هل تريدين بعض الشراب أم بعض القهوة؟

ـ لا، شكراً! أنا تعبة كثيراً.

وقف ماتيو أمامها، ونظرت إليه لتقرأ أفكاره ولكنها لم تستطع.

قال بصوت مازح:

ـ هل أنت عصبية لأنها الليلة الأولى على زواجك، بولا؟

نظرت إليه بارتباك وقفزت فوراً إلى الوراء.

قال لها وهو لا يزال مبتسماً:

ـ هاي!! أنا أمزح فقط! أنت تقفزين بمهارة. هل تريدين بعض القهوة؟. تعالي لقد أشعلتُ النار!

وافقت وجلستْ قربه على الأريكة أمام النار الدافئة وراحت تحتسي قهوتها، فشعرت تدريجياً أنّ أعصابها بدأت تسترخي ثم طلب منها ماتيو أن تضع بعض الموسيقى.

كان ماتيو قد نزع سترته وفكّ ربطة عنقه، وجلس على الأريكة ماداً قدميه الطويلتين إلى الأمام، مسنداً رأسه إلى الخلف ثم أغمض عينيه. أخذت تنظر إليه من خلال وميض النار فبدا وكأنه غفا على نغم الموسيقى الهادئة، فتساءلت باستغراب هل هذا الرجل هو فعلاً زوجي؟ لم تصدق أنّها تزوجت فعلاً. تعلم انّه لن يؤذيها أبداً ولن يتسبّب لها بأحزانٍ جديدة. أخذت تنظر إلى شعره الأسود المتماوج وإلى قسمات وجهه الهادئة وإلى

يديه القويتين في محاولة منها لتعرف كيف سيكون شعورها إذا ما لامسها.

فتح عينيه وأدار طرفه إليها وسألها بهدوء:

ـ هل تشعرين بتحسن؟

ارتبكت قليلاً ثم ابتسمت له:

ـ أجل أشعر بتحسن كبير. يصعب عليّ أن أصدّق حتى الآن أنّ ما قمنا به حقيقة.

ـ سيكون كلّ شيء على ما يرام يولا... سترين ذلك.

بعد الانتهاء من حفلة الاستقبال الرائعة التي أقامتها لهما مارغريت، تعوّدت يولا بسهولة على نمط حياتها الجديدة، مع أنّها لم تتغير كثيراً عن مجرى حياتها السابقة. فهي تمضي وقتها كالسابق بين أغراضها وفي عملها الدائم في التصاميم، وماتيو في عمل مستمر، نشاطه السياسي يأخذ معظم وقته. كانا يعيشان منفردين مع أنهما يتناولان الطعام معاً ويذهبان إلى الحفلات الاجتماعية معاً.

كانت يولا تعتبرُ غرفة ماتيو محرّمة وفي غضون الأسبوعين الأولين على زواجهما لم تجرّب قطّ الدخول إليها. ذات يوم دفعها فضولها لرؤية ما فيها. ظنّت أولاً أنها ستجد أشياء شخصية مرتبطة بزواجه الأول، ولكن عندما دخلت إليها رأتها غرفة بسيطة لا توحي بأي ارتباط بالماضي... بدت عاديّة وكأنها غرفة فندق، لكنّها أخيراً شاهدت صورة على طاولة جانبية، وسرعان ما عرفت أنّها صورة «بيث» فدنت من الطاولة وأخذت تتأمّلها. إنها فعلاً امرأة جميلة، رقيقة، جذّابة. أحسّت فجأة ببعض الغيرة فخرجتْ

بسرعة وذهبت إلى غرفتها وأخذت تنظر إلى صورة رينشارد وراحت تخاطبه بعينين دامعتين: أنت وحدك حبيبي! لم أخنك قط. لم أتزوج حقاً، ولا أشعر بأي شيء نحو هذا الرجل الغريب البارد العينين.

خلال حفلة الزواج كان ماتيو قد وعد أخيه بالذهاب برفقة يولا لتمضية عطلة عيد الفصح في المزرعة في ماريلاند، كما أنّ من الضروري أن يمضي بعض الوقت في مقاطعته.

راحت يولا تتأمّل مناظر الطبيعة الخلاّبة وهما في طريقهما إلى ماريلاند من بعد ظهر نهار الخميس قبل عيد الفصح. كانت بساتين التفاح أمامهما على مدّ النظر. ها قد مضى شهر على زواجهما.. لاحظت وهي تنظر إلى زوجها الذي كان يقود السيارة أنّها حتى الآن لا تعرفه أكثر مما عرفته قبل زواجهما.

يقع منزل عائلة ستراتون في وادٍ فسيح على حدود ولاية بانسيلفانيا الجنوبية. إنها مزرعة بيضاء كبيرة تحيط بها المراعي وبساتين التفاح وسائر أنواع الفاكهة.

شعرت يولا فوراً بمودّة تجاه مارشا زوجة شقيق زوجها. عندما ذهب الرجلان لتفقد الخيول جلستا معاً في الخارج تحتسيان الشاي البارد. قالت لها مارشا:

ـ إنني مسرورة بقدومك وكنت أنتظركِ بفارغ الصبر لأتعرف إليكِ بصورة أفضل.

سُرّتْ يولا بصراحتها، هي امرأة شقراء قصيرة القامة ودودة البسمة لا تفارق ثغرها.

قالت لها يولا:

ـ إنه مكان قديم رائع. هل أمضيت حياتك كلها هنا؟

ـ أجل! وأمضينا فيه شهر العسل أيضاً. اندروز لا يحب السفر وهو يتذرّع دوماً بالأحصنة مدعياً أنه لا يقدر أن يتركها بمفردها، مع أن لدينا مسؤولاً عن الاسطبل ومدرّباً.

ـ أين ابنتكِ الصغيرة؟

ـ عند شقيقتي. لديها صبيان صغيران شقيان، لوري تستمتع برفقتهما، وقد ذهبوا معاً لحضور عيد ميلاد إحدى صديقاتها. ظهراً تعود إلى المنزل... كانت مترددة كثيراً بين الذهاب إلى الحفلة والبقاء في المنزل لاستقبال العم ماتيو، فهي تحبّه كثيراً.

العم ماتيو! بدا لها ذلك غريباً.

ـ كم تبلغ لوري من العمر؟

لاحظتْ مارشا التعجب على وجه يولا فقالت لها:

ـ أدرك بماذا تفكرين. كيف تمكّن شخصان كبيران في السن أن يكون لهما ولد في مثل هذه السن؟ لقد انتظرنا كثيراً قبل ولادة لوري.

ثم نظرت إلى يولا وقالت لها:

ـ ربما كان ذلك لا يعنيني لكنني أرجو لك ولماتيو حظاً أفضل منا. سيكون أباً رائعاً.

ـ أجل بالتأكيد سيكون كذلك.

وقالت في نفسها: أعتقد أنّ مارشا على حق.

تابعت مارشا حديثها.

ـ لم ترد بيث قط أن تنجب أولاداً... ربما كان ماتيو لا يرغب في ذلك أيضاً..

ابتسمت ثم أردفت: هو يحتفظ دائماً بشعوره لنفسه ربما اكتشفتِ بنفسكِ ذلك. على كل، كان آنذاك قد بدأ حياته السياسية وبدا أنهما كانا متفقين على ذلك... كانت جميلة رغم شحوبها الشديد.

ـ أجل لقد شاهدتُ صورتها، وأعرف أن ماتيو أحبّها كثيراً.

ـ أجل كان كذلك. أحبّت بيث أن تخلق دائماً جواً من الغموض من حولها، كانت امرأة منعزلة وأنانية.

استدركت مارشا خطأها: «من غير المناسب التكلم عن الموتى... أريد أن تعلمي أنني مسرورة لأنّ ماتيو تزوّج ثانية من امرأة مختلفة عن بيث. أنت امرأة تلفت النظر، حارة، وودودة وهذا ما يحتاجه ماتيو ليضع حدّاً إلى الأبد لتمسّكه وتعلّقه ببيث. إذا وقع في غرامك فهذا يعني أنّ سحرها اختفى».

ثم ضحكت بحرارة.

رجع ماتيو وأندرو في تلك اللحظة وعادت لوري من حفلتها بعدهما بقليل، فانقطع الحديث بينها وبين مارشا. لكنّها ظلّت طوال الوقت تفكّر بكلامها.

أرشدتها رؤية ماتيو بين أفراد عائلته إلى جانب جديد من شخصيته فقد اختفى من مخيّلتها ذلك الرجل الفولاذي البارد الذي تعوّدت على رؤيته وأظهرت تصرفات أندرو ومارشا لها شخصية ماتيو الحقيقية التي كانت تجهلها.

في تلك الليلة، بعد طعام العشاء اقترح عليها أندرو أن تذهب برفقته إلى الاسطبل لمشاهدة الخيول.

ظهر على محياها الخوف.

ـ لا أدري! لم أقترب قطّ من الأحصنة، لقد عشت طوال عمري في المدينة... بالحقيقة أنا أخاف منها.

قال لها ماتيو مازحاً:

ـ لن تعضك فهي مخلوقات رائعة لطيفة.

كان جالساً إلى كرسي كبير حيث بدا مسترخياً وسعيداً، إذ اختفت عن محياه علامات العبوس والتجهّم.

قال لها أندرو مازحاً وهو ينظر إليها بعينيه السوداوين:

ـ لا تخافي، هي في مرابطها وليس باستطاعتها الخروج.

كان جالساً إلى جانب ماتيو يرتدي الجينز وله تقريباً قامة ماتيو ذاتها غير أن في شعره بعض الشيب وأما جسمه فأكثر امتلاء.

وقفت لوري تنظر إلى يولا بعينين واسعتين وقد ظهر التعجب عليها، فسألتها:

ـ أتخافين فعلاً من الأحصنة؟ لا أصدّق ذلك.

تورد وجه يولا وأجابتها:

ـ حسناً! أنا لا أخاف منها وأحبّ أن أراها.

ذهبوا جميعاً إلى الاسطبل. الدنيا ظلام والهدوء يلف الكائنات ورائحة التفاح الذكية تعبق في الجو وتنتشر في كل مكان. داخل الاسطبل قفزت لوري من الفرح شوقاً إلى تعريف يولا إلى حصانها الصغير الذي بدأت تمتطيه منذ بلوغها الثالثة من عمرها: «اسمه برنس».

قالت هذا بفخر وهي تجرّ يولا بيدها نحو المربط.

كان حصاناً صغيراً جميلاً عيناه بنّيتان يقف هادئاً في مربطه

يمضغ طعامه.

راحت يولا تسير بهدوء في الاسطبل الدافىء تتأمل الأحصنة العديدة الواقفة في مرابطها بسلام وهدوء. وبدأت تشعر بالشجاعة والراحة.

قال لها أندرو:

ـ الآن وقد أصبحتِ من العائلة يولا، عليكِ أن تتعلّمي ركوب الخيل.

نظرت إليه وإلى ماتيو بدهشة فابتسم لها وقال:

ـ لا تخافي ولا تستعجلي! ستتعلمين ذلك عندما تصبحين جاهزة.

كان أندرو يمسك سلّة من التفاح بين يديه، يطعم منها الأحصنة كلٌّ بدوره، قال لها:

ـ خذي يولا هذه التفاحة وجربي إطعام برنس. لا تخافي، هي أفضل طريقة لتتعرّفي إليه.

نظرت إلى الحيوان الجميل فرأته وديعاً وهادئاً. تناولت التفاحة من يد أندرو وتقدّمت ببطء نحو برنس الذي كان ينظر إليها. وضعتْ التفاحة في يدها واقتربت منه بهدوء وفتحت يدها ليأخذها منها... عندئذ أطلق الحصان صهيلاً مفاجئاً وضرب بحافره الأرض فارتعبتْ يولا ووقعت التفاحة من يدها على الأرض. فتراجعت إلى الوراء خائفة، وركضت تحتمي بين ذراعي ماتيو وأخفت وجهها على صدره. أصبحت مرتبكة الآن أكثر منها خائفة لأنها كانت تسمع الآخرين يضحكون بصوت عالٍ، ما عدا ماتيو الذي غمرها بحنان وأحاطها بذراعيه القويّتين. نظرت إليه

خجولةً من خوفها الكبير وراحت تضحك على نفسها مع الآخرين، ثم قالت له بخجل:

ـ آسفة ماتيو على هذا المشهد المضحك. هل خذلتك أمام عائلتك؟

نظر إليها وكان لا يزال يغمرها بذراعيه. وضع يده الحارة والقوية برقة على خدّها فأحسّت بالأمان والسلام بين ذراعيه.

أجابها وهو يبتسم:

ـ لا يمكن لأيّ شيء تفعلينه أن يخذلني.

سمعتْ لوري تناديها وترجوها أن تجرّب ذلك مرة أخرى. عندما أبعد ماتيو عنها يديه ببطء ارتدت إليها قائلة:

ـ حسناً لقد ضحكتم عليّ بما فيه الكفاية... أعطني تفاحة أخرى وسأبرهن لكم أنّ فتاة المدينة قد تخاف مرة من الأحصنة لكنها لن تخاف ثانية.

قال لها أندرو بسرور:

ـ أنت فتاة رائعة.

وأعطاها تفاحة ثانية.

نجحت هذه المرة إذ وضعت التفاحة في راحة يدها وقدمتها ليرنس الذي راح يأكلها بهدوء. وكم شعرت بالسرور والراحة! بعد ذلك عادوا جميعاً إلى المنزل وهم لا يزالون يضحكون على خوف بولا وهنأوها على شجاعتها. وشعرت أنها بالفعل جزءٌ حقيقي من هذه العائلة القوية والمُحبة.

قال لها أندرو وهو يشعل نار المدفأة في غرفة الجلوس الفسيحة.

ـ ستجعل منكِ فارسة قديرة، أنتِ لا تعرفين الآن شيئاً عن الأحصنة لكنك ستتعلّمين ذلك بسرعة.

قبل ذهابها إلى السرير جاءت لوري إلى غرفة الجلوس لتقبّل عمّها... قبل أن تنام جلست في حضنه ووضعت يديها حول عنقه وقبّلته. كانت بولا تراقبهما بسرور. لم تعتقد قطُّ أنّ السنائور ستراتون المتحجّر قد يصبح كالعجينة بين يدي ابنة شقيقه الصغيرة، هذا ما فكّرت فيه عندما رأت وميض المرح والحنان في عينيه.

جلسوا جميعاً أمام النار المستعرة في المدفأة يتسامرون حتى منتصف الليل، عندما قام اندرو واعتذر ليذهب إلى النوم لأنّه مضطر إلى النهوض غداً باكراً. ثم صعدت مارشا بدورها لتنام فتمنت لهما ليلة مريحة وطلبتْ منهما أن يأخذا راحتهما في النوم فليس من الضروري أن ينهضا باكراً.

عندئذ ذهبت بولا مع ماتيو إلى غرفة النوم التي خُصّصت لهما وهي غرفة ماتيو القديمة منذ أيام الطفولة، تشعر بالارتباك... كيف سينامان معاً في الغرفة نفسها؟ طمأنها ماتيو وطلب منها ألا تقلق لأنه سينام في المدخل التابع للغرفة وهي تنام في الداخل.

ثم قال لها وهو يبتسم: سنقتسم الحمام أيضاً... نعلّق منشفتي في الوسط.

قالت له بولا وهي مضطربة:

ـ ستلاحظ مارشا أننا أبعدنا الفرش واستعملنا السريرين.

أجابها ماتيو:

ـ من يهتم؟ لن تقول شيئاً وما دمنا مُتفقين على ذلك فأمورنا تعنينا فقط.

أوتْ بولا إلى فراشها وهي تسمع أصواتاً غريبة في الخارج . . . إنها طبيعة الريف الهادئة الحلوة. حمدت الله لأنها لم تتعرض لمثل هذه التجربة عند مارغريت، فلو صادف أن اضطرت للنوم في منزل مارغريت وعرفت أنها تنام منفصلة عن زوجها لأقامت الدنيا وأقعدتها، بينما هنا كل شيء يسير على ما يرام بعد حكمة ماتيو وتصرّفه الرزين. راجعت في مخيلتها اللحظات التي غمرها فيها ماتيو بين ذراعيه القويّتين عندما كانت ترتعد من الخوف وتساءلت أمن الممكن أن تكون زوجته بكل معنى الكلمة؟ لكن يبدو أن ماتيو متمسّك بالترتيب الذي تمّ الاتفاق عليه وهي سعيدة إلى هذا الاتفاق إذ لن يحلّ أحد في قلبها مكان ريتشارد. الاعتياد على حبه كان قوياً جداً بحيث يصعب التغلّب عليه.

صباح الاثنين في طريق عودتهما إلى واشنطن سألها ماتيو وهو يقود سيارته:

ـ هل تمتّعت بهذه العطلة؟

أجابته بولا مبتسمة:

ـ بالتأكيد سررت بها، أحببت أخاك وزوجته اللذين غمراني بضيافتهما اللطيفة.

ـ حسناً، هما أحباك كثيراً، لِمَ لا؟ أنت امرأة محبوبة.

لم تعرف بولا بما تجيب، لكنّها كانت سعيدة لأن ماتيو يجدها محبوبة.

* * *

٦ ـ لا تراجع

بعد عطلة الأسبوع مع عائلة ماتيو بدأت بولا تلاحظ تبدّلاً مريباً في علاقتهما . . . لم يكن هناك بالحقيقة ما هو مهم بل بعض التوتر إذ كانا يراقبان بعضهما بعضاً ويتحرّكان ويتحادثان بحذر. وجدت أنها خلال النهار تقف مراراً أمام باب غرفته المفتوح لترى إذا كانت صورة بيث في مكانها . . . كانت تشعر بالكآبة وتأمل أن تراها ذات يوم قد اختفت.

ضاقت ذرعاً من هذه الحالة فمن قبل كانت مستريحة لعلاقتهما فماذا حصل؟ هل تغيّر ماتيو؟ أم هي نفسها تغيّرت؟

بدأ اتفاقهما ينهار يوماً بعد يوم. كان ماتيو ينغيّب كثيراً عن المنزل وعندما يكون خلال الطعام أو عند المساء يتصرف معها بحذر. وعندما كانت تجلس قربه لتشاهد التلفزيون أو لتقرأ الجريدة كانت تلاحظ نظراته تراقبها بشدة.

في أول شهر حزيران بعد شهر تقريباً على زيارتهما للمزرعة، قدّمت لهما مارغريت بطاقتين لحضور حفلة موسيقية في مركز كنيدي وجلست إلى جانب ماتيو في المقصورة في المقاعد الخلفية كالعادة . . . لاحظت بولا وهي تقرأ البرنامج أنهم سيعزفون كونشيرتو «هايدن» الذي سبق أن عزفوه عندما حضرا الحفلة ذاتها

السنة الماضية وألقت نظرة سريعة على ماتيو لترى إن كان لاحظ ذلك فرأته ينظر إليها ويبتسم.

تبخّر بلحظة الضغط الذي كان مسيطراً على علاقتهما في الأيام الأخيرة، وانحنى إليها يهمس في أذنها:

ـ لاحظت أنّنا لن ننهي حفلة الليلة مع بارتوك كما حصل في المرة السابقة.

ألقتْ نظرة على البرنامج ثم أحنت رأسها وقالت له بصوت خافتٍ: هل ستبقى هذه المرة للاستماع للمقطع الثاني؟

ـ أجل بالتأكيد فأنا أعشق براهامس.

انطفأت الأنوار وبدأ العزف، فأخذت بولا تتجاوب مع الموسيقى الهادئة وبدأت تزداد خفقات قلبها حتى انهمرت الدموع من عينيها. لاحظت ذراع ماتيو على كتفها فأحنت بحبور وراحة، وأرخت رأسها إلى زنده باسترخاء ثم ما لبث أن تناول ماتيو محرمة من جيبه ومسح بها دموعها بلطف. كان ينظر إليها والبسمة على وجهه. عندما انتهى العزف خرجا معاً إلى القاعة الكبيرة فالتقيا بأحد زملاء ماتيو وزوجته. أمضيا الاستراحة معهما ثم عادا إلى المقصورة للاستماع إلى المقطع الثاني.

في طريق العودة إلى المنزل عاد ماتيو إلى انزوائه.

كان اضطرابها يزداد يوماً بعد يوم لأنه ينحاشاها أكثر فأكثر.. كانت تراقبه من وقت إلى آخر بنظرات سريعةٍ. وبدأت تشك في تصرفاته وتتساءل إذا كان يقيم علاقة مع امرأة أخرى، لكنّها تعلم أنّه حريص جداً على اسمه وسمعته، وهو سيحافظ على وعده لها. لكن من يدري ربما ارتبط مع امرأة بدون أن يدري أحد به! فمن

خلال ملامساتهما القليلة شعرت أنّه كغيره من الرجال يفيض بالمشاعر والرغبات.

مع مضي الأيام والأسابيع ابتعدا أكثر وأكثر عن بعضهما بعضاً وأصبح الكلام بينهما قليلاً وجعلتها هذه الحالة غير قادرة على المواظبة على عملها بسبب توتّر أعصابها... وقرّرت أن تفاتحه بما يدور في رأسها في أقرب وقت.

كان الطقس حاراً في تلك الليلة من شهر تموز. ظلّ ماتيو صامتاً خلال تناول الطعام، وكان عصبياً على غير عادته. وبعد العشاء ذهب ليستحم لارتباطه بموعدٍ تلك الليلة. تساءلت بولا هل تفاتحه بالموضوع قبل ذهابه؟ أم تنتظر قدومه مهما كان الوقت متأخراً؟ لا تستطيع أن تؤجّل تلك المسألة، فحياتها لا تُطاق. وهي تريدُ أن تعرف ما الخطب في تصرّفه. هل هي امرأة وقع في غرامها؟ هل يريد أن يستعيد حريته؟

بعد ذهابه، ظلّت جالسة وحيدة تتصفح بعض مجلاّت الأزياء. سمعت فجأةً حركة المفتاح في الباب. غريب! لم يطل غيابه أكثر من ساعة. تعجّبت من عودته بسرعة وتفاجأت ولم تكن قد استعدّت للكلام الذي ستقوله له. قال لها باقتضاب:

ـ قرّرت عدم الذهاب إلى هذا الاجتماع فليتدبروا الأمر بدوني.

نظرتْ إليه، كان ممسكاً سترته بيده وعلامات الهمّ في عينيه. اضطربت وتساءلت أيشكو من ألم؟ لم تره قطُّ في هذه الحالة. راح يمشي ذهاباً وإياباً في الغرفة بعصبية ثم قال لها فجأة بصوت مضطرب:

ـ هناك ما أفكّر فيه منذ مدة. قرّرت أن أفاتحك به لأنني رأيت

أنّ صمتي سيزيد الأمور سوءاً.

شحب وجهها وازداد توتر أعصابها، وشعرتُ بالاضطراب والخوف. ظنّت أنّه سيطلب منها استعادة حريته تاركاً إياها وحيدة، فأجابته بصوت ضعيف:

ـ ما هو هذا الشيء مانيو؟ ألاحظ منذ مدّة أنّ هناك ما يضايقك.

رمى سترته على طرف الأريكة، فكّ ربطة عنقه، وارتمى بثقله على المقعد، ثم ألقى عليها نظرة حاسمة وقال بهدوء:

ـ فكّرتُ مئة مرة أن أفاتحكِ بهذا الموضوع، وكنت أتردد دوماً خشية أن أزيد الأمور بيننا سوءاً، لكنني أرى الآن أنّه لم يعد بمقدوري السكوت. أنا بحاجة إلى عائلة يولا، أنا بحاجة إلى طفل.

تعجبت يولا لأنها لم تنتظر مثل هذه المفاجأة.

ـ ولد! ماذا تعني بذلك؟ أتريد أن تتبنّى طفلاً؟ أم تراك وجدت امرأة أخرى تريد أن تتزوجها؟

أجابها بعصبية:

ـ أنا لا أريد أن أتبنّى طفلاً وليس هناك امرأة أخرى... أريد طفلنا.

أذهلها قوله فردت متلعثمة:

ـ طفلنا! لكن ذلك يعني...

ـ أجل، بالتأكيد.

وضع يده على شعره الأسود بعصبية وأضاف:

ـ أعلم أنّ ما أطلبه ضرب من الجنون بسبب الاتفاق الذي

جرى بيننا، وبسبب نظرتك إليّ وشعورك تجاه ريتشارد. لكنّ هذه الفكرة تمتلكني وتكاد تحطّمني. أريد منك على الأقل أن تفكّري بجد في هذا الموضوع.

شعرت يولا بالدوار في رأسها، وبالأفكار المتضاربة تتقاذفها. قفزت من مكانها ووقفت بسرعة قرب النافذة وراحت تفكّر في ما تجيب. لم تتوقع ذلك قط ولا يمكنها أن تنام مع شخص لا تحبّه ولا يحبّها. ماذا سيفعل إذا رفضت؟ هل يتركها ليبحث عن امرأة تستجيب لطلبه؟ المسألة بسيطة بالنسبة إليه، فالرجل لا يحتاج إلى عاطفة ليعاشر امرأة. يكفيه وجه جذّاب وجسد مغرٍ لإثارة مشاعره.

أرادت للحظة أن تجادله وتتّهمه بمحاولة استغلالها ولكنّها عندما نظرت إليه تفاجأت! كان وجهه شاحباً، وعيناه زائغتين وقد بدا عليه الحزن والألم. لم تشاهده قط بهذه الحالة، فوضعه أصعب ممّا ظنّت. إنّها تعزّه وتحترمه لأنه رجل شريف.

قالت له أخيراً:

ـ فاجأتني كثيراً، فلم أعتقد قط أنّ ذلك ما كان يضايقك.

ابتسمت له وتابعت:

ـ اعتقدتُ أنك متضايق من وضعنا وتريد استرجاع حريتك.

ـ من أين جاءتكِ هذه الفكرة بحق الله؟ إنني راضٍ عن وضعنا ولكنني أريد طفلاً قبل أن أتقدم بالسن.

ـ أمهلني الوقت لأفكر في هذا الموضوع.

ابتسم وقال لها:

ـ بالطبع. أمهلك الوقت الذي تريدين، أنا أشكرك لأنك

حملت كلامي على محمل الجد.

في الأيام التالية استولى هذا الموضوع على تفكيرها كله، فكّرت بالاتصال بمارغريت ومفاتحتها بالقضية لتسألها رأيها ولكنّها استدركتْ، إنها لن تقدر على ذلك من دون أن تشرح لها حقيقة وضعها مع ماتيو، وبهذا تفتح مجالاً لأسئلة لا نهاية لها.

بدأت تفكّر: هي شخصياً تريد طفلاً وقد سبق أن فكّرت مراراً بمفاتحة ماتيو بالموضوع وأرادت منه أن يسمح لها بتبني طفل، أمّا الآن فلماذا التبني ما دام هو أيضاً يريد ذلك وما دام باستطاعتها إنجاب طفلها؟ من غير الضروري أن تكون ولهى بحب ماتيو فهي لا تشمئزّ منه، بل بالعكس تراه جذّاباً. لم تفكّر قط بذلك، لذا بدأت تنظر إليه بشكل آخر.

بعد يومين من التفكير، وجدت يولا أن لا سبب وجيه يدفعها إلى رفض طلبه، لماذا ترفض أن يكون لها طفل وعائلة؟ أليس هذا ما تتمناه كلّ امرأة؟

في الليلة الثانية، وقبل عودة ماتيو، ذهبت إلى غرفة نومها ونظرت إلى صورة ريتشارد فلاحظت أنّها لم تفكرّ فيه في الأيام الأخيرة. نعم ما زالت تحبّه ولكنّها وجدت أنّ ألمها وحسرتها على خسارته قد اختفت.

تأكدت أخيراً أنّها لا تزال مترددّة تقاوم في داخلها طلب ماتيو لأنها تخاف أن تعطيه جسدها من غير حب، لكنّها تريد طفلاً.. تريدُه وتريدُه من كلّ قلبها.

عندئذ اتخذت قرارها فأمسكت صورة ريتشارد وذهبت إلى الخزانة حيث وضعتها في الجارور مع أغراضها وذكرياتها.

وصل ماتيو متأخراً تلك الليلة، كانت قد قررت بعد تناول طعام العشاء أن تعطيه جوابها. بدت مترددّة، خائفة، ومضطربة، لذا تضاعفت نبضات قلبها. ما إن انتهت من ترتيب المطبخ حتى حضّرت القهوة التي حملتها إلى غرفة الجلوس، كان ماتيو جالساً يقرأ جريدة المساء.

قالت له: «ماتيو..» نظر إليها وابتسم:

ـ أوه!! قهوة، هذا ما أنا بحاجة إليه.

جلست إلى جانبه وهي تردّد:

ـ ماتيو، لقد اتخذت قراري.

وضع فنجان القهوة بسرعة على الطاولة ونظر إليها:

ـ نعم يولا.

أومأت برأسها.

ـ سأفعل ما تريد، سأحمل طفلك.

نظر إليها بشكرٍ وحنان، فلاحظت للمرة الأولى منذ أن تعرّفت إليه أنّ علامات الحزن والألم قد اختفت كلياً من عينيه الرماديتين وحلّ مكانهما الراحة والسرور.

استحمت تلك الليلة وتعطرت بعطر قدمته لها مارغريت هدية لها يوم زفافها وذهبت إلى فراشها وهي تفكر باضطراب إن كان ماتيو سيدخل عليها. أطفأت أنوار الغرفة وتركتْ فقط الضوء الخافت الشاحب على الطاولة الموجودة إلى جانب سريرها. بدت متوتّرة الأعصاب، فالساعة الآن الحادية عشرة ليلاً. لن يأتي بالتأكيد في هذا الوقت المتأخر. ربما ذهب إلى فراشه ونام. سمعت فجأة الباب يقرع فارتجفت، ماذا تفعل؟ لا يمكنها أن تقوم

بذلك. سمعته يقول بصوت خافت:

ـ يولا، هل أستطيع الدخول؟

أجابته بصوت متقطع:

ـ أدخل ماتيو.

كان في يديه كوبان من الشاي.. راقبته وهو يضعهما قرب السرير على الطاولة. بدا لها قوي البنية، كان شعره رطباً من الحمّام وذقنه حليق.

استدار وهو يقول لها:

ـ فكّرت أنّك قد ترغبين في الشاي.

ـ أجل، شكراً، أرجوك أنا بحاجة إليه.

قدّم لها الكوب فارتشفت منه رشفة صغيرة لأنه ساخن. عندما سرت الحرارة في جسمها أحسّت ببعض الهدوء.

قال لها ماتيو بصوت خافت:

ـ لا تكوني عصبية يولا!

نظرت إليه شاكرة... إنّها تثق به.

جلس إلى جانبها على السرير ورفع يده ثم راح يداعب شعرها الأسود. وهو يتمتم: أنت امرأة جميلة يولا، أريد أن تعرفي أنني منجذب إليك كثيراً، شعرك ناعم كالحرير، كنتُ أرغب أن ألامسه هكذا منذ وقت بعيد.

ارتجفت فارتد إلى الوراء وقال بحنان:

ـ لا تخافي يولا! يمكنك أن تنسحبي متى شئت.. حاولي أن تسترخي.

أومأت برأسها وتمتمت: «سأحاول».

أغمضت عينيها عندما شعرت بذراعيه تطوقانها بلطف.

ـ أريدكِ يولا، ضعي ذراعيك حولي. اذعي أنّك تحبينني.

ردّدت في قلبها: إنّه يريدني! ولفّت عنقه بذراعيها على مهل. فراح يعانقها بقسوة، حتى شعرت بالخوف فأجفلت.

تمتم: أرجوكِ لا تتركيني هكذا..

فكّرت وهي تتجاوب معه أنّها لا يمكنها أن تتراجع الآن لكنها لم تنتظر أن تشعر بتلك الأحاسيس القوية التي تشعر بها الآن. وخافت من شعورها وانجرافها وراء أحاسيسها المكبوتة.

ورغماً عنها تركته يغزو مشاعرها التي أخذت تتفاقم وتتفاقم.

ثم توقّفت كلّ أفكارها، وغرقت معه في مشاعر لا حد لها...

لم تحلم قطّ أنها قد تشعر بمثل هذه المشاعر القوية.. كان جسمها بأسره كتلة من الشعور والأحاسيس، لم يخطر ببالها قطّ أن هذا الرجل البارد والفولاذي الإرادة يخفي خلف عينيه الرماديتين هذه المشاعر الجارفة.

أخيراً.. أخيراً! أصبحت زوجة ماتيو بكلّ ما للكلمة من معنى.

استفاقت يولا في منتصف الليل. كانت قد غفت بين ذراعيه. استعادت بسرعة ما جرى ثم ارتدت لتفتش عنه. كان السرير فارغاً إلى جانبها... لقد ذهب... أحسّت بالامتعاض فاستراحت على سريرها، تُرى لماذا تركها؟ ربما أظهرت شوقاً كبيراً. احترق وجهها من الحسرة لأنها استسلمت له. لماذا ذهب وتركها وحدها مع أنها تأكدت أنه يحترق من الشوق إليها؟ هل ما حصل معها الليلة هو مجرد حلم؟ لا، فما زالت تشعر بعناقه يغمرها.

نهضت من السرير وارتدت ثوب النوم وهي تستعيد ذكريات الليلة الماضية... فبدأت تدرك رويداً لماذا كانت تخاف من إقامة علاقة معه. أحسّت فعلاً أنها وقعت في حبّه من دون أن تدري، فارتعشت من الخوف... كيف تفسّر إذن تجاوبها معه؟ كيف تكذّب أحاسيسها وشوقها واندفاعها ورغبتها فيه؟ هل ما قامت به هو استسلام بسيط له أم تجاوب مع مشاعرها الخفية نحوه؟ كانت قبل هذه الليلة تحبّ رفقته وتُعجب به وتحترمه، فتأكدّ لها الآن أنّ كل هذه الظواهر لم تكن بالحقيقة سوى اعتراف خفي برغباتها نحوه ومقدّمة لحب عميق تكنّه له في أعماقها.

تساءلت: كيف كانت عمياء إلى هذه الدرجة؟ فخلال الأيام الأخيرة لم يكن اضطرابها وقلقها وتردّدها وتوتّر أعصابها سوى حاجة غريزية لحماية نفسها من حقيقة مشاعرها المكبوتة نحوه.

لكنّها تأكدت الآن أن ماتيو رغم رغبته فيها لم يلفظ طوال تلك اللحظات المفعمة بالشوق والإثارة أية كلمة عن الحب، فما زال تحت تأثير سحر بيث. إنه يريد ولداً ولكنه لا يريد زوجة.

نهضت بولا من نومها في اليوم التالي متأخرة فوجدت أن ماتيو قد ذهب إلى مكتبه. أخذت تنجز أعمالها المنزلية اليومية كالعادة وتحضّر طعام الغداء وهي تفتّش طوال الوقت عن تفسير لانسحاب ماتيو خلال الليل. أرادت أن تُبعد عنها تلك الفكرة السوداء التي علقت في ذهنها وتُقنع نفسها بحجةٍ تبرّر تصرفه. ماتيو رجل مرهف الإحساس، يشعر مع غيره. ربما لم يرد أن يربكها عندما تستفيق صباحاً وتراه في السرير إلى جانبها، فانسحب ليتلافى هذا الإحراج. ظلّت الأفكار تتقاذفها طوال

النهار، لكنها أخيراً أصبحت مقتنعة أنها تحب زوجها وأمامها فرصة كبيرة ليحبها.

كانت في المطبخ تحضر طعام الغداء عندما سمعت حركة مفتاحه في الباب. أحسّت بكلّ أعضاء جسمها ترتجف ثم شعرت بوقع قدميه تقترب منها. أرادت أن تظهر طبيعية أمامه، فلم تحاول أن تنظر إليه. تصرّفت وكأنها منهمكة في عملها، ولكن يديها ارتعشتا ارتعاشة كبيرة كادت معها الصحون تقع. كان وجهها متورداً من الاحمرار عندما اقترب منها وسألها:

ـ كيف حالك بولا؟

ـ أوه! على ما يرام.

قالتها من دون أن تنظر إليه. فجأة صرخت من الألم، فقد وضعت إصبعها تحت المياه الساخنة من دون أن تدري. اقترب منها وأمسك يدها. بدأ إصبعها يحمرّ وينقرّح، ففتح ماتيو المياه الباردة ووضع يدها تحتها وسألها:

ـ هل تشعرين بتحسن؟

أومأت برأسها لأنها لم تستطع أن تتكلم. أقفل حنفية الماء وجلب منشفة وأخذ يجفف لها يدها بلطف وتأنٍّ. ثم وضع المنشفة جانباً وأمسك وجهها بيده وسألها من جديد بلطف وحنان:

ـ كيف حالك؟

ابتسمت وأجابته:

ـ أنا على ما يرام.

ـ هل أنت آسفة على ليلة أمس؟

ـ لا. لستُ آسفة.

ابتسم وانحنى نحوها، وقبّل بلطف أنفها وهو يقول لها:

ـ أنتِ فتاة رائعة. لديّ موعد هذه الليلة. هل تسمحين لي ببعض الوقت حتى أستحم وأغتسل؟

ـ بالتأكيد فالمياه ساخنة وقد حضّرتُ لك عشاءً بارداً... خذ وقتك! سأنتظرك ريثما تنتهي.

ظلّت يولا ساهرة تنتظره تلك الليلة حتى الساعة الحادية عشرة والنصف. كانت تنظر إلى التلفزيون من دون انتباه، ولكنها لم تدرِ ماذا ستفعل وبماذا تفكّر. خلال العشاء لم يتكلم ماتيو عن أي شيء شخصيّ، بل ظلّ حديثه محصوراً بلقاء العمل الذي ينتظره.

أطفأت أخيراً جهاز التلفزيون، وذهبت إلى سريرها تنتظر قدومه وتفكّر في تصرفاته الغريبة معها وفي ما يدور في فكره؟ خلال طعام العشاء وجدت أنها تنظر إليه بنظرات جديدة. علمت دائماً أنّه رجل جذّاب أما الآن أخذت تشعر بأنّ لنظراته مفعولاً غريباً وجديداً عليها.

عندما أوشكت أن تغفو وتنام سمعت وقع قدميه في المدخل. اضطربت وخفق قلبها وترددت: هل تقف وتذهب إليه؟ ولكن قبل أن تتخذ قرارها سمعت وقع قدميه يبتعد ببطء وخفّة نحو غرفة نومه.

في اليوم التالي لم تره إلا في الصباح خلال تناول طعام الفطور، وظهراً اتصل بها ليخبرها أنّه لن يستطيع أن يأتي إلى الغداء. عندما تزوجته كانت تعلم جيداً ما هي حياة السناتور، فهو مرتبط دائماً بمواعيد عمل وواجبات مختلفة. لذلك كانت تغضّ

النظر عن غيابه.

تركت الضوء مضاء في غرفتها وظلت تنتظر عودته حتى منتصف الليل عندما غفت في فراشها واستفاقت في الساعة الثانية من بعد منتصف الليل. كانت غرفتها ما تزال مضاءة ولأنها ظنّت أنه لم يأت أطفأت النور وعادت إلى نومها.

في الليلة التالية ذهبت برفقة ماتيو إلى حفلة ثم إلى المطعم مع المدعوين الآخرين، كان ماتيو يعاملها كالسابق بحرص واحترام. حتى في طريق عودتهما إلى المنزل ظل يتكلم معها بصورة عامة ولم يحاول أن يلمسها.

في الليلتين المنصرمتين لم تستطع يولا النوم من الأرق ومن التفكير في زوجها وفي ما يدور في خلده. أيعتقد أنّ ليلة واحدة كافية لتحمل منه؟ أهذا كلّ ما يريده؟ هل هي مجرد وعاء لاستيعاب ذريته؟

تلك الليلة عادا في ساعة متأخرة إلى المنزل. لدى وصولهما إلى الشقة كانت مغتاظة جداً، فقالت له باقتضاب من دون أن تنظر إليه «طاب مساؤك» ثم دخلت إلى غرفتها حيث نزعت ثيابها وارتدت قميص نومها واستلقت في فراشها وغفت بسرعة لأنها كانت مرهقة من توتّر أعصابها في اليومين الأخيرين.

حلمت في نومها أنّ ماتيو عاد إليها أخيراً باندفاع وحيويّة حتى كادت تشعر بوجهه يلامس وجنتيها، وبيده تداعب عنقها. استفاقت على مهلٍ من نومها فلاحظت أنه ليس حلماً. أخذت تفتح عينيها تدريجياً فلمحت شبحاً مظلماً جالساً على طرف سريرها. إنه ماتيو وقد انحنى فوقها وأصبحت شفتاه قرب

أذنها . . . تمتم:

ـ هل تمانعين أن أبقى بولا؟

جزبت أن تصبّ نار غضبها عليه، لكن كانت أنفاسه الدافئة تتماوج في أذنها وأنامله الرقيقة تنسلّ إليها، فأحست بسرور غريب أنساها كل غضبها وكان أن استرخت واستسلمت لمشاعرها.

أحاطها بذراعيه وغمرها بقوة يعانقها بشغف وحرارة فاستجابت لمشاعرها المكبوتة.

أرادت مراراً أن تكشف له عن حبها ولكنها كانت تعضّ على شفتيها خشية أن تحطّم بكلامها كلّ شيء بينهما.

هي تعلم أنّه لا يحبها بقلبه وعقله لكن غريزتها النسائية تؤكّد لها أنه يحبها جسدياً وأنّه سيحبّها مع الوقت بقلبه وروحه.

هذه المرة أيضاً غفت بين ذراعيه وعندما استيقظت في الصباح وجدت نفسها وحيدة في الفراش، لقد تركها وذهب. . . فتبخّرت آمالها وعاد إليها اضطرابها، ماذا باستطاعتها أن تفعل؟ يجب أن تقبل الحقيقة: إنّها بالنسبة لمانيو وسيلة لإشباع رغباته ولإنجاب طفله. أيمكنها أن تعيش مع هذا الواقع؟ وشعرت بالخوف من المستقبل. . .

* * *

٧ ـ نداء امرأة ميتة

وليم ومارغريت قادمان مساء غدٍ لتناول العشاء عندها! ظلّت بولا طوال النهار تحضّر طبقاً من اليخنة الفرنسية المعقّدة وتفكر أن توقيت العشاء جاء في وقت غير مناسب، ليس فقط لأنّها متوتّرة بسبب تصرفات زوجها، بل لأنها منهمكة بإنهاء بعض التصاميم الجديدة لأحد محلات الأزياء الشهيرة في فيلادلفيا. عليها تسليمها في غضون أسبوعين ولكنها تجد صعوبة في التركيز على عملها.

وصل مانيو تلك الليلة باكراً فوجدها مرهقة. فاليخنة لم يكن لها أي طعم ومرقة اللحمة لم تصفُ، وقالب الشوكولا تمدّد وانخسف وسطه عندما أخرجته من الفرن في الساعة السادسة. وعندما دخل مانيو إلى المطبخ كانت على وشك البكاء.

قال وهو يمزح:

ـ أشم رائحة طيبة.

بدا المطبخ كالفرن. وتساءلت بعصبية ماذا دهاها لتقوم بتحضير هذه الطبخة الفرنسية المعقّدة في منتصف تموز؟

استدارت ونظرت إلى مانيو الواقف قرب الباب. . . كان بارداً ونظيفاً يرتدي سروالاً رمادياً فاتحاً وقميصاً بيضاء.

قالت بحدّة وعصبية: حسناً ها قد ذهب كل تعبي سدى لأن الطعام فسد.

اقترب منها ببطء ونظر إلى قالب الكاتو الممدّد على طرف مصرف المياه. تضاعف توتّرها عندما أصبح قربها، ولامست ذراعه المكشوفة يدها وهو يحاول أن يمدد إبهامه ليتذوق قطعة صغيرة من قالب الكاتو.

تمتم بتقدير: شوكولا! الحلوى المفضلة عندي... مذاقها طيب مم تشكو؟

صرخت:

ـ مم تشكو؟ ألقِ نظرةً عليها.

تأملها وتمتم:

ـ لقد حرزت، إنها منخسفة قليلاً في الوسط.

حاول بصعوبة ألا يضحك.

صرخت:

ـ ليس ذلك مضحكاً.

لم تكن مرتاحة لوجوده واقفاً بقربها... لو كان زواجنا حقيقياً لكان باستطاعتي أن أستريح على صدره وأبكي على كتفيه لأرفّه عن كدري وأضحك من حماقتي.

لا بأس إذا فسدت الطبخة عندما تكون واقعاً في الحب. ولكننا لسنا مغرومين... وأخذت الدموع تترقرق في عينيها.

قال لها بصوت رقيق:

ـ هاي بولا! لا يبدو سيئاً. لا تبكي بسببه، على كلٍّ أنتِ بانتظار وليم ومارغريت لا بانتظار السيدة والسيد الرئيس.

قالت وهي لا تزال تجهش بالبكاء:

ـ أعرف.

غمرها بذراعه وسحبها نحوه. فاجأتها حركته فاستدارت ورمت نفسها على صدره تبلل قميصه البيضاء بدموعها. شعرت ببعض التحسن. ما همُّها إذا فسد الغداء عندما يكون ماتيو قربها، يضمّها إلى صدره ويواسيها؟ تمنّت لو تظلّ بين ذراعيه القويتين إلى الأبد، تنسى العشاء وتنسى وليم ومارغريت وتنسى الدنيا بأسرها.

كانت يده تتحرك بلطف على زندها العاري فأحسّت بالراحة والبهجة. عندما رفعت رأسها لتنظر إليه كانت الدموع في عينيها. إنه ينظر إليها والنار في عينيه وها هو يحني رأسه رويداً نحوها، فأغمضت عينيها... وشعرتْ فجأة بيده تنسحب بسرعة عن كتفها، فالتفتت إليه بخجلٍ وتراجعت إلى الوراء.

كانت سترته قد وقعتْ على الأرض فانحنى وتناولها ثم نظر إليها وهو يبتسم وسألها:

ـ هل تشعرين بتحسن؟

أدارت وجهها لتخفي امتعاضها من هذا التبذّل المفاجىء في تصرّفه:

ـ أجل.

ـ حسن ستكونين على ما يرام، سأذهب الآن لأستحم ولأرتدي ثيابي.

أجابته:

ـ أجل، سيكونان هنا في الساعة السابعة والنصف وعليّ أيضاً

سمعت وقع قدميه عندما خرج من المطبخ، وجلست بضع دقائق قرب الفرن تحرّك مرقة اللحم وتتساءل لماذا انسحب فجأة بينما كان يهم بمعانقتها.

ذهبت إلى غرفتها ودخلت بسرعة إلى غرفة الحمام تفكّر في تصرف ماتيو الغريب. كانت متأكدة أنه أراد أن يعانقها.. رأت ذلك في عينيه عندما غمرها في المطبخ... لم يخطط لذلك، تصرّف بعطف وحيويّة، فحدسها قال لها إنه يريدها.

عندما أنهت حمامها، جفّفت جسمها وشعرها ووقفت أمام المرآة تنظر إلى نفسها وتتساءل، هل خاف من ردة فعلها؟ لا، لا تعتقد ذلك... أدركت أن زوجته بيث هي وراء كلّ ذلك كما كان ريتشارد بالنسبة لها، وأملت أن يتخلّص من بيث. تعرف أنه يريدها ولكنّه لا يزال يحبّ زوجته ولا يزال عالقاً بسحرها. بعاشرها ولكنّ مشاعره وأفكاره لا تزال عند بيث. ولن يسمح لنفسه أن يحبّني. كيف يمكن أن يحدث ذلك وهو عالقٌ بسحر شبح؟

اقترفت خطأً كبيراً عندما وافقت على اقتراحه وعندما تجاوبت مع رغباته، ولكنها بعد الآن لن تسمح له أن يلمسها وإلاّ خسرت نفسها.

أخيراً وبعد أعجوبة لم يُتلف العشاء كما توقعت، ففي آخر لحظة سكبت مرقة اللحم في مصفاة من القماش وخفقت قليلاً من الكريما ووضعتها وسط الجزء الهابط من قالب الشوكولا. قبل وصول وليم ومارغريت جلسوا على الشرفة يتناولون طعام العشاء على ضوء الشموع بينما راح نسيم الليل البارد يلطف قليلاً حرارة

الصيف الخانقة. فشعرت يولا ببعض التحسّن.

راحت تنظر إلى ماتيو أثناء تناول الطعام.. بدا لا مبالياً، لكنها صمّمت على المضي قدماً في قرارها. حاولت تجاهله طوال الوقت ولم تجرّب قط أن تبتسم له حتى عندما كان أحياناً يختلس النظر إليها ويبتسم.

قال لها وليم:

ـ انه غداء لذيذ، يولا، لم أدر أنك ماهرة في الطبخ.

وقالت مارغريت: أجل أعجبتني الشوكولا كثيراً... إنّها لذيذة جداً.

ارتدّ وليم إلى ماتيو الذي كان يدخّن سيجاراً طويلاً وقد استرخى إلى الوراء على كرسيّه وكأنه غير عابىء بتغيّر يولا المفاجىء نحوه. سأله:

ـ متى تذهب في مهمّتك الاستطلاعية إلى الشرق الأقصى؟

ـ كيف عرفت بذلك؟ من المفروض أن تبقى القضية سرّاً.

ابتسم وليم وقال له:

ـ يحدث دائماً بعض تسريب المعلومات من مكتب الرئيس، على كل أنا لا أعلم إلاّ الخطوط العريضة وأجهل كل التفاصيل.

حاول ماتيو أن يجاوب بحذر وكانت يولا تراقبه. بدا ساحراً وأنيقاً هذه الليلة ببذلته السوداء ووجهه الوسيم الذي لوّنته الشمس.

قال أخيراً:

ـ أعتقد لا مشكلة إن تكلمنا عن هذا الموضوع الآن فأنا مسافر بعد أيام قليلة.

ثم نظر إلى بولا نظرة اعتذار وقال لها:

ـ أرجو أن تعذريني بولا، كان علينا أن نكتم الخبر حتى عن زوجاتنا.

تمتمت ببرودة:

ـ طبعاً، أدرك ذلك.

راح يُخبر وليم أنّه سيكون على رأس البعثة مع أعضاء اللجنة وموظفين كبيرين من مكتب الرئيس ومع عدة أعضاء من مجلس الكونغرس. لم تحاول بولا الاستماع إلى شرحه، ولكنّها سمعت فقط أنّه سيتغيّب مدة أسبوعين تقريباً.

حسناً. هذا ما تحتاج إليه، سنسمح لها هذه الرحلة بإخراجه من تفكيرها وبرنامجها، وعندما يعود ستطلب منه البحث عن امرأة أخرى لتنجب طفله. لأنها لن تسمح له بعد اليوم بالاقتراب منها.

سمعتْ مارغريت تقول لها:

ـ تبدين على ما يرام، بولا. يظهر أنّ الحياة الزوجية تناسبكِ.

ابتسمت:

ـ أجل، أعتقد أنها تناسبني أنا راضية بها تماماً.

أجابتها مارغريت بسرور:

ـ يجب أن تكوني كذلك، فأنتِ محظوظة لأن ماتيو رجل ممتاز وكلّ نساء واشنطن يحسدنك.

ابتسمت بولا وقالت في نفسها: لو كانت شقيقتها وسائر النساء الأخريات يعرفن حقيقة ماتيو ستراتون لغيرن نظرتهنّ إليه.

عندما ذهب وليم ومارغريت في منتصف الليل، شعرت بولا أنها منهكة جسدياً ومعنوياً بسبب العمل المتواصل طوال النهار

وبسبب تصرفات ماتيو.

ما إن أقفلت الباب وراءهما حتى شعرت ببعض الانفراج. كان رأسها يؤلمها كثيراً وتحس بحاجة إلى النوم ولكنها قرّرت أن تنظّف بقايا الطعام وأن تبتعد عن ماتيو. بدأت بتنظيف الشرفة ثم وضعت الصحون والكؤوس على طبق كبير. في هذا الوقت وقف ماتيو على الباب يراقبها. لم يكن باستطاعتها أن تنظر إليه، وتظاهرت بالانهماك في عملها.

سألها:

ـ كيف أقدر أن أساعدك؟

أجابته من دون أن تنظر إليه:

ـ لا حاجة إلى ذلك. من الأفضل أن تأوي إلى فراشك.

كان صامتاً لكنه لم يتحرك. عندما ملأت بولا الصينية بالأغراض حاولت أن تحملها إلى المطبخ ولكنها كادت تقع من يديها.. تقدّم ماتيو وأخذها منها، فمشت وراءه نحو المطبخ، وباشرت بغسل الصحون من دون أن تنظر إليه... فقال لها:

ـ آسف لأنني لم أخبرك عن رحلتي إلى الشرق الأقصى.

هزّت كتفيها: لا داعي للاعتذار. أفهم ذلك كلياً.

أكملت تنظيف الأواني، وتمنّت أن يتركها بمفردها.

قال لها:

ـ أعتقد أنّ في الأمر خطباً ما.

ـ لا شيء يتأتأ، أشعر فقط بألم في رأسي.

ـ هل تريدين مرافقتي في رحلتي.. إذ ستسافر بعض الزوجات مع رجالهنّ.

توقفت وجفّفت يديها بالمنشفة... لبرهة كادت تقع في التجربة وتوافق، إذ فكرت أنهما إذا ابتعدا عن واشنطن فقد ينسى بيث ويبدأ بالتعلق بها، أسبوعان معه كفيلان بتغيير كلّ شيء.

ثم تذكرت موعد تسليم تصاميمها للجنة، ونظرت إليه لترى إذا كان يريد منها فعلاً أن ترافقه.

قالت له:

ـ لا أدري إن كنتُ أستطيع، عليّ إنهاء هذه التصاميم في أسبوعين.

ثم فكرت: إذا طلب مني الذهاب مرة ثانية فسأوافق ولتذهب اللجنة وتصاميمها إلى الجحيم... ولكنها رأته ينظر إليها وأفكاره بعيدة. ثم قال لها:

ـ أجل! نسيتُ تصاميمك. إذا كنت مضطرّة حقاً إلى ذلك فافعلي ما ترينه مناسباً وابدئي بها.

ثم ابتسم لها ودخل إلى غرفته متابعاً: «حاولي أن تأخذي بعض الدواء لتسكين ألم رأسك».

في اليومين التاليين، أمضى ماتيو معظم أوقاته في الاجتماعات ولم يكن يعود إلا في ساعة متأخرة مرهقاً ويخلد فوراً إلى النوم.

شعرت يولا ببعض التحسن، فقد كانت قد قرّرت نهائياً أن تعيد الحواجز القديمة بينها وبينه.

بدأت فعلاً بعملها مباشرة قبل ذهابه... العمل هو الدواء الوحيد لمكافحة الهموم. وأخذت تفكّر بالطريقة التي ستقول له فيها إنها لن تريد بعد الآن أية علاقة بينهما.

بعد أسبوع على سفر ماتيو اتصلت بها مارغريت وطلبت منها تمضية عطلة الأسبوع عندها في فيرجينيا.

أجابتها يولا:

ـ أوه! لا أقدر أن أذهب لأنني مضطرة إلى تسليم تصاميمي بعد أسبوع.

ـ حسناً تعالي فقط لنهار الأحد.

ـ آسفة! لا أستطيع فأنا أعمل ليل نهار لإنهاء عملي في الوقت المحدّد.

ـ حسناً! هل نقدر أن نتناول طعام الغداء معاً نهار الاثنين؟

ـ لا بأس أنا موافقة. أنا بانتظارك في تمام الساعة الثانية عشرة أمام البناية.

أقفلت الخط تتساءل عما تريده منها شقيقتها بهذا الإلحاح.

صحبتها مارغريت على غير عادتها إلى أحد المطاعم القديمة الهادئة، فعلمت فوراً أنّ ما ستقوله مهم. بدأت مباشرة بالحديث:

ـ أتعلمين أنّ والد ميشال لاتروب هو من بين أفراد اللجنة التي يترأسها ماتيو وقد رافقت ميشال والدها في هذه الرحلة؟

كانت يولا تجهل ذلك. نظرت إلى شقيقتها وقالت لها ببرودة:

ـ لا، لم أدرِ بذلك، لكن ماذا تعنين بكلامك؟

انحنت مارغريت إليها وقالت لها:

ـ أخاف حتى على وليم من صائدة الرجال هذه، ولا يمكن لأحد أن ينجو منها إلاّ وليم لأنه لا يحبّ الشقراوات.

أجابتها يولا بغضب:

- أتلمحين إذن إلى ماتيو وميشال؟

- أنا لا أعني شيئاً. لكنني أقول لك إنك كنت مجنونة عندما رفضت الذهاب مع زوجك. لماذا فعلت ذلك؟ ألم يطلب منك مرافقته؟

- بلى طلب مني ذلك ولكنني لم أستطع مرافقته بسبب عملي.

صرخت مارغريت بغيظ:

- تباً لعملك! هل سيظل عملك الثمين مناسباً لك إذا فقدتِ زوجك؟ ما هو أهم بالنسبة لك زوجك أم عملك؟

حاولت الابتسام وهي تقول:

- إذا فقدتُ زوجي سأحتاج إلى عملي أكثر من السابق.

بينما كان الخادم واقفاً ليقدم لهما الطعام، قالت بولا في نفسها: ربما مارغريت على حقّ لكنّها شخصياً في هذا الوقت غير مهتمة بماتيو، فكرت أنها قادرة إذا أرادت أن تحارب ميشال ولكنها غير قادرة على محاربة الأشباح.

قالت مارغريت:

- حسناً، ماذا ستفعلين بهذا الخصوص؟

أجابتها بولا بهدوء:

- لن أفعل شيئاً، لستُ قلقة على ماتيو.

انفعلت مارغريت:

- إنك امرأة مسكينة بريئة. لو كنتُ مكانك..

- لستُ مثلك مارغريت، أنت لا تعلمين شيئاً عن زواجي بماتيو. أرجو منك أن تضعي حداً لهذا الموضوع وإلاّ من الأفضل أن أرحل، لأنني لا أريد أن أناقش هذه المسألة أبداً.

صدم مارغريت جواب بولا الحازم، وفتحت فمها ثم أطبقته وأخذت تتناول طعامها بهدوء.

قالت لها: لا تغضبي حبيبتي! فلننسَ الموضوع.

أخذت فوراً تخبرها عن آخر إشاعات واشنطن الاجتماعية.

عندما عادت إلى المنزل، لم يكن باستطاعة بولا أن تبعد عن فكرها صورة ماتيو وميشال، وتذكرت أول لقاء لهما في سهرة الاستقبال، وكيف حاولت ميشال إغراءه وهي تراقصه. تساءلت أتراه فعلاً يعانق ميشال الآن؟ كادت الغيرة تمزقها لذا قررت أن تضع حداً لعلاقتها به قبل فوات الأوان. ستخبره بقرارها فور وصوله، ستكون لطيفة معه لكنّها ستكون في الوقت نفسه حازمة.

عاد ماتيو نهار الأحد مرهقاً من السفر ولكنه كان مسروراً لنجاح مهمته.

قال لها وهو يتحدّث إليها خلال تناول العشاء:

- أعتقد أننا أحرزنا تقدماً كبيراً في مباحثاتنا.

سرت عندما استقبلته على باب الشقة وشعرت فجأة بأنها نسيت قرارها، وظهر هو أيضاً مسروراً برؤيتها. نظر إليها وهو يبتسم من الفرح ثم انحنى وعانقها عناقاً سريعاً.. وكم شعرت بالسعادة وهي تتأمله على المائدة. بدا نحيلاً ومرهقاً، لا بدّ أنه متعب كثيراً.

تناولا القهوة على شرفة المنزل وهناك وجدته أكثر جاذبية من السابق وأحسّت أنها ستغيّر رأيها ولن تقول له شيئاً بخصوص علاقتهما.

التفت إليها وسألها:

- ماذا عنك؟ هل انتهيتِ من تصاميمك في الوقت المحدد؟

- أجل لقد قدّمتها للمحل وقد أعجبوا بها كثيراً وكلفوني بتصاميم جديدة لمناسبة عيد الميلاد.

- حسناً، لكنني تمنيتك معي، لقد افتقدتك كثيراً يولا.

نظرت إليه فتضاعفت نبضات قلبها، أيعني حقاً ما يقول؟ هل افتقدها فعلاً وميشال لاتروب الفاتنة قريبة منه؟

أجابته وهي تبتسم:

- أعتقد أنّ بوجود ميشال لاتروب صاحبة الفتنة والإغراء لن يفتقد أي رجل زوجته.

نظر إليها باستغراب وضحك:

- أتغارين منها يولا؟

اغتاظت من ضحكته:

- لا، لا أغار منها، على الأقل ليس من ميشال.

شعر أنها تضايقت:

- أخبرتكِ قبل زواجنا أنني لن أسبّب لك أي إزعاج وما زلت على وعدي.

أجابته ببرودة:

- بالحقيقة أنا غير مهتمة بذلك ماتيو، فقد حصلنا بصعوبة على هذا النوع من الزواج حيث لا معنى للغيرة والإخلاص.

في طريقها إلى المطبخ لوضع فناجين القهوة، أمسكها بيدها فجأة وقال لها بغضب:

- ما دهاك لتقولي هذا الكلام؟ لا معنى للإخلاص بعد كل ما جرى بيننا؟

نظرت إليه باضطراب وفكرت: أهو يعني فعلاً ما يقول؟ هل بدأ فعلاً يهتم لأمرها؟ فتحت فمها لتتكلم عندما رنّ جرس الهاتف. ترك ماتيو معصمها وقام بسرعة للردّ على الهاتف:

- إنه مارتن، قلتُ له إنني سأتّصل به فور عودتي وقد نسيت.

تقدّم إلى المدخل ليتكلم بهدوء أما يولا فكانت تغسل فناجين القهوة وتفكر: قد تتحسن الأمور، ربما انتهى سحر بيث.

ناداها فجأة:

- أرجو منك أن تدخلي إلى غرفة نومي وتجلبي لي مفكّرتي فهي موجودة في حقيبة سفري الجلدية السوداء وقد وضعتها فوق أغراضي.

أسرعت إلى غرفته وكان أول ما لاحظته أن صورة بيث غير موجودة على الطاولة كالسابق فخفق قلبها بسرعة... هل تخلّص منها كما فعلت هي بصورة ريتشارد؟

فتحت الحقيبة ووجدت المفكرة في أعلاها، كانت الحقيبة في غاية الترتيب والنظافة، لاحظت تحت أحد قمصانه طرفاً معدنياً فأبعدت القميص ووجدت تحتها صورة بيث. تملكها الغيظ والغيرة... ألم يكن باستطاعته أن يترك صورة زوجته بيث مدة أسبوعين على الأقل؟ لن تتمكن أبداً أن تحلّ مكانها.

سمعته يناديها فعادت بسرعة وأعطته المفكرة. الآن قررت أن تحارب ضعفها وتخبره بقرارها قبل فوات الأوان. كان يقرأ في مفكّرته ولكنه عندما رآها ابتسم ومشى إليها، فأحنت بالارتباك ولكنّها تمالكت نفسها وقالت له وهي مضطربة:

- هناك ما أريد أن أخبرك به ماتيو. لقد فكّرت به مراراً خلال

غيابك ووجدت أنني غير مسرورة من الطريقة التي يسير فيها اتفاقنا الأساسي.

نظر إليها بتساؤل:

- لا أفهم ما تقولين!

- وجدت أنني لا أريد طفلاً.

- أتعنين أنك لا تريدينني بعد اليوم في سريرك؟

- أجل، هذا ما أعنيه.

نظر إليها بغضب شديد وكأنه يكرهها، ثم تقدم خطوة منها وأمسك ذراعها بقوة وقال لها بحدة:

- أنتِ تكذبين، إذا كنت تحاولين أن تقولي لي إنك لا تريدينني وإنك لم تتجاوبي معي فأنتِ تكذبين.

وقفت يولا واجمة ترتجف من الخوف. لم تر ماتيو قط على هذه الدرجة من الغضب.

كانت عيناه تقدحان شرراً وشفتاه ترتجفان وقد ضغط بأصابعه على يدها فتمتمت أخيراً:

- أنت تؤذيني.

أبعدها عنه بقوة حتى كادت أن تفقد توازنها وتقع أرضاً.. جرّبت أن تستعيد قواها ورباطة جأشها. كانت خائفة من ردة فعله العنيفة وخُيّل إليها أنّ ماتيو الذي تعرفه قد اختفى ليحلّ محله شخص آخر خطير ومخيف. رفعت رأسها وهي تخاطبه مرتجفة:

- ماتيو! سبق أن قلتَ لي إنني قادرة على التراجع عن قراري متى شئت، وهذا ما أفعله.

أجابها وهو يزمجر:

- لماذا؟ لماذا تتراجعين الآن؟ لقد تأخرتِ كثيراً.

- أشعر أن هذا الوضع يؤلمني كثيراً.

- ما هو الذي يضايقك يولا؟ أهو النوم معي؟ لم أشعر أنك متضايقة من ذلك، بل على العكس لقد لاحظت أنك كنتِ تتمتّعين بكل لحظةٍ تمضينها معي.

ثوردت خجلاً: ليس هذا ما كنت أعنيه، أنا أقرّ بذلك... تجاوبتُ معك..

ارتبكت إذ لم تستطع أن تتابع فماذا تقول له، أتقول إنها تحبه؟..

- حسناً، ما هو السبب إذن؟ ألأنني لست رينشارد؟

صعد الدم إلى رأسها وصرخت بوجهه متأثرة كثيراً:

- كيف تتجاسر وتقول لي هذا الكلام؟ أنتم الرجال سواسية.

أجابها بهدوء وقد تغيّرت نبرة صوته:

- أنت على حق يولا، أنا آسف، لا أدري ماذا أصابني... لقد افتقدتكِ فعلاً وكنت بغاية الشوق لرؤيتك من جديد، فإذا بكِ تفاجئينني بقرارك فشعرت بصدمة قوية ولا أدري كيف تصرّفت.

وهي صُدمت أيضاً فعندما شاهدت صورة بيث في حقيبة سفره شعرت أنّ آمالها كلها تبخّرت فهو لم يتخلّ عن صورتها حتى في سفره.

فقالت له:

- ماتيو، إنني متعلّقة بك كثيراً وقد تجاوبتُ معك ووجدت أنني طبيعية كأية امرأة أخرى فأنت رجل جذّاب ولكن ألا تشعر...

ورفعت يديها وكأنها تطلب المساعدة ثم تابعت:

- العلاقة الجسدية من دون حب حقيقي هي مزحة. شعرت أنني أكذبُ على نفسي وعلى مبادئي ولهذا السبب يجب أن أضع حداً لذلك.

- لا معنى لكل ما تقولين.

- ربما لا يعني ذلك شيئاً للرجل، على كلٍ إذا كنت تريد حريتك فلن أمانع أبداً.

- دعيني أفكر في الموضوع. في الوقت الحاضر لا أدري ماذا أريد.

* * *

٨ ـ قل كلمة واحدة فقط!

في الصباح التالي وخلال تناول الفطور اعتذر مانيو عن تصرفه ليلة أمس. بدا شاحب الوجه كئيباً، وظهرت الخطوط حول عينيه.. كأنه لم يذق طعم النوم. قال لها وهو يغادر المائدة:

- لا أدري ماذا أصابني! سأتعلم المحافظة على رباطة جأشي وأبقى متمالكاً أعصابي.

ظلّت بولا صامتة وهي تنظر إلى صحنها ولم تحاول أن تنظر إليه. لاحظت بوضوح أنّ الوضع بينها وبين مانيو دقيق جداً وشعرت أنّ كلَّ أملٍ ما لمستقبل معه قد تبخّر، فهي أيضاً ظلّت مستيقظة كل الليل.. ربما كان تصرّفها مجنوناً لأنها ظنت أنها لن تستطيع أن تواصل حياتها معه على هذا النحو. إنّها غلطتها لقد تصرفت بصورة غبية. كان واقفاً يراقبها وبعد صمتٍ طويل قال لها:

- ما زلت أستغرب تصرفك ولا أستطيع أن أفهم خلفياته. لكنني أعترف أنني قلت لك إنَّ باستطاعتك التراجع متى شئت وأريد أن تعلمي أنني سأحافظ على وعدي.

نظرت إليه وسألته بصوت ضعيف:

- ماذا تريد أن تفعل؟

- لا شيء، سترجع الأمور بيننا كما كانت في السابق. سأتأخر هذه الليلة، لا تنتظرينني على العشاء.

بعد خروجه، ظلّت بولا جالسةً وقتاً طويلاً تشرب قهوتها وتفكر في ما حصل بينهما ليلة أمس. قرّرت التوقّف عن التفكير في هذا الموضوع فمن الأنسب أن تترك الأمور تأخذ مجراها بصورة طبيعية.

كان الصيف قد ولّى وجاء فصل الخريف وكالعادة تعرّت الأشجار وتناثرت أوراقها على الأرض في كل مكان وبدأ الطقس يميل إلى البرودة.

بعد تلك الجلسة على المائدة صباحاً، عادت الحياة بين ماتيو وبولا إلى سابق عهدها. التزم كليّاً بكلامه ولم يحاول قط الدخول إلى غرفة نومها بل لم يعد يبتسم لها أو يظهر بعض العطف والحنان في نظراته. ولم يحاول بعد ذلك أن يلمسها مرة إلاّ في المناسبات الاجتماعية من باب التهذيب واللياقة.

قالت في نفسها مراراً إنّها تصرفت بغباء وخسرت بحماقتها تلك العاطفة الصغيرة التي يكنّها ماتيو لها. شعرت مراراً أنها بحاجة أن تعود إليه وتقول له إنها غيّرت رأيها وإنها تريده من جديد وتريد طفله.

فجأة رأت نفسها تدخل إلى غرفته لترى إذا كانت صورة بيث في مكانها، ووجدتها حيث هي على الطاولة قرب سريره فقرّرت من جديد أن تظلّ بعيدة عنه.

وجدت صعوبةً كبيرة في مواصلة هذا النمط من الحياة. كانت تراقبه دائماً من بعيد لا سيما في المناسبات الاجتماعية والحفلات

وكم شعرت بالغيرة كلما شاهدته يرقص مع النساء الأخريات مبتسماً.

ها قد بدأ الآن موسم السهرات والحفلات الاجتماعية في واشنطن خصوصاً بالنسبة لمارغريت، فدعتهما لحضور حفلة استقبال في فندق ماي فلور على شرف سيناتور كاليفورنيا الجديد وذلك مساء السبت لكي تقدمهما إليه. كانت الأعلام والزينة تملأ المكان والأضواء الملوّنة تتراقص هنا وهناك، والموسيقى تعزف. وراح المدعوون يملأون حلبة الرقص.

سألتهما مارغريت فوراً وهي تستقبلهما:

- ما رأيكما بهذا الديكور؟

أجابتها بولا:

- إنه رائع.

بينما كانت مارغريت تقودهما إلى طاولتهما التفت بولا بوجوه عديدة مألوفة لها. كانت تحيّي معارفها وتبتسم ثم رأت ميشال لاتروب واقفة إلى جانب سيناتور كاليفورنيا الجديد... بيريل ارميتاج كانت مع زوجها وآل بينفرز على الطاولة المجاورة لطاولتهما، ديفيد وايّات كان يراقص امرأة جميلة وهي عضو في الكونغرس عن ولاية جورجيا.

عندما وصلوا إلى الطاولة قالت لهما مارغريت: تصرفا بحرية وافعلا ما يحلو لكما، فكل ما هو مسلٍّ متوفر هنا. ثم اختفت بين الجمهور لتستقبل المدعوّين.

كان وليم جالساً إلى الطاولة أحمر الوجه متجهماً، فقال لها فوراً:

- حسناً! ما هو رأيك بشقيقتك وبهربها من هنا الآن. أليس ذلك مسلياً؟

- لا بأس وليم أعتقد أنّ بإمكانك الوثوق كلياً بمارغريت.

ثم قال ماتيو بشكل غير منتظر:

- إنها تعرف ماذا تفعل.

أجاب وليم:

- لا أدري إذا كان أولادنا سيقولون لنا يوماً إننا أمضينا حياتنا بعيدين عنهم.

- لا بأس وليم! مارغريت تحب الضيافة والحفلات لكنها مستقيمة ولا تطارد الرجال.

- هل تعتقدين ذلك؟

تركها ومشى مع ماتيو لإحضار المرطبات.

بعد ذهابهما مباشرة عادت مارغريت برفقة السناتور الجديد وميشال لاتروب وقدّمت السناتور لشقيقتها يولا. بعد لحظات رأت وليم وماتيو عائدين. راحت يولا تراقب الحاضرين، وكانت ميشال لاتروب قد جلست بين ماتيو والسناتور الجديد الذي كان شاباً أشقر مديد القامة.

بدت ميشال لاتروب مأخوذة بين هذين الرجلين الجذابين اللذين كانا من وقت لآخر ينحنيان إليها ليتكلّما وسط وقع الموسيقى الصاخب.

وتصاعدت أنغام الموسيقى تملأ الآذان. وقف السناتور لاركن وطلب من مارغريت مرافقته، فقامت ميشال لاتروب بسرعة ومدّت يدها إلى ماتيو ليرافقها. عندئذ تعجّبت يولا من غبائها

لماذا لا تتعلق بزوجها، لماذا تركته؟ ولماذا ترى السرور على وجه ماتيو وهو ينظر إلى ميشال؟ في الحقيقة النساء يشكّلن تهديداً للرجال.

وقف ماتيو ووضع يده حول خصر ميشال يرافقها مبتسماً فرفعت يديها وضمتهما حول عنقه وأخذت تتكلم إليه بصوت خافت. كانت ميشال ترتدي ثوباً أبيضاً شفّافاً، إن للثياب فعلاً تأثيرها على الرجال! أما هي فترتدي ثوباً قديماً أسود تحت سترة رمادية طويلة. فكّرت أنها من الآن وصاعداً ستعير اهتمامها إلى ثيابها.

عندما رأت ميشال تضع خدها على خده وتلتصق به وتهمس في أذنه شعرت بالغيرة تحرقها.

أخيراً طلب منها ماتيو أن ترافصه بعدما رقص مرتين مع ميشال ومرّة مع مارغريت.

نظرت إليه واقفاً إلى طرف الطاولة بانتظارها، فقالت في نفسها فجأة: إنه زوجي وإذا كان هناك امرأة بمقدورها أن تملأ عينيه سروراً وبهجة فهي أنا. وقفت ونزعت سترتها عنها ووضعتها على طرف الكرسي. أمسكها بيديه وراح يرافصها وقد حرص أن يظلّ بعيداً عنها ولكنها فكرت: لا، أنا لا أريد ذلك هذه الليلة... اقتربت رويداً منه ووضعت يدها على كتفه ثم غمرت عنقه بذراعيها. توقّف قليلاً وهو ينظر إليها بتعجّب ونظرت إليه بعينين ذابلتين تسأله وهي تبتسم بإغراء:

- هل من خطب ماتيو.

وضعت أناملها على شعره الأسود والتصقت به فشعرت بأنفاسه الحارة قرب أذنها وغمرها بيديه وشدها إلى صدره. وعاد

إلى الرقص ثم تمتم:

- لا خطب أبداً، أبداً.

بينما كان يرقصان في تلك الصالة الكبيرة شعرت بغضبها يتلاشى رويداً رويداً. كان ماتيو يضع يده على ظهرها بحرارة ورقة ثم أغمضت عينيها واسترخت بين ذراعيه، وسمعته يوشوش في أذنها.

- فلنخرج من هنا، دعينا نعود إلى المنزل!

رفعت رأسها وفتحت عينيها ونظرت إليه. كان ينظر إليها برغبة وشوق أما نظراته القاسية فتلاشت تاركة وراءها كل عبوس. بدا لها أنيقاً وسيماً وقوياً فشعرت بدوار اللهفة والحب.

رفعت يدها عن رأسه وأجابته:

- أجل.. أجل.

عادا بسرعة إلى الطاولة وهناك تناولت سترتها وارتدتها واعتذرا من الحاضرين وتبعته دون أن تفكّر في الوضع الجديد المتفجّر الذي زجّت نفسها فيه.

خلال سيرهما نحو السيارة وضع ماتيو ذراعه على كتفها ودفعها بلطف نحوه، عندما وصلا إلى السيارة سألها:

- هل تشعرين بالبرد؟

ابتسمت بضعف وأجابته:

- قليلاً.

عانقها بسرعة وفتح الباب وساعدها على الجلوس، فتساءلت عما سيفعله؟ كيف ستخرج من هذا المأزق؟ عرفت وهي تفكر في ميشال لاتروب أن غيرتها هي التي أوصلتها إلى هنا.

عندما دخلا إلى الشقة أضاء ماتيو النور ونزع معطفه.. وحاولت هي بدورها أن تنزع سترتها وأدارت له وجهها وفكرت في الذهاب إلى غرفتها لتنام، ولكنها قبل أن تتخذ قرارها أحست بماتيو يغمرها بذراعيه ويجذبها نحوه بقوة وهو يهمس في أذنها بلطف ورقة:

- أريدكِ بولا!.

خفق قلبها بسرعة وهي تسمع كلامه. نزع عنه سترته ووضعها على طرف الأريكة ففكرت أن توقفه قبل فوات الأوان وقبل أن تخونها مشاعرها لأنها لن تستطيع بعد ذلك أن تتحمل بعده عنها وسحر بيث عليه.

عندما عاد إليها قالت له بنبرة حازمة:

- ماتيو أنا ذاهبة لأنام وحدي.

ظنّت أنها الطريقة الوحيدة لإيقافه، ولكن ما إن شاهدت الغضب ينفجر من عينيه حتى ندمت على لهجتها وخافت من ردة فعله، وكم تفاجأت عندما قال لها بصوت حاد:

- لا! لا يمكنك أن تفعلي ذلك!

- آسفة يجب أن تفهم.

- أفهم؟

أمسك عنقها بيده وهو يقول لها:

- هذا ما كنت أفعله طوال الشهر الفائت.

كان الشرر والغضب يتطايران من عينيه.. أمسك بشعرها وشدّها، فقالت له بصوت ضعيف وهي ترتجف:

- أعلم بماذا تشعر...

- لا أنت لا تعلمين أبداً بما أشعر... لقد تحمّلت بألم وقبلتُ أن أظلّ بعيداً عنك ونحن تحت سقف واحد، لكن عندما تتعمدين إثارتي وإغرائي ثم تتراجعين في آخر لحظة فهذا شيء آخر.

ارتجفت من الخوف وبدا لها ماتيو غريباً في ثورة غضبه، فقالت له وهي مرتبكة:

- لم أعنِ..

- ما الذي لم تعنيه؟ أنت لا تعرفين ما تريدين؟ أراك ليلة تذوبين من الشوق بين ذراعي، وليلة أخرى قطعة من الثلج. كفاني منك ومن تقلباتك..

كادت تموت من الرعب لأنه وضع يديه حول عنقها. ماذا سيفعل؟ هل سيخنقني؟ هل سيقتلني؟

انحنى إليها يعانقها بوحشية.. وبمقدار ما كانت تقاوم بمقدار ما كان يشدها إليه بقوة وعنف.

وتمتمت بصوت ضعيف:

- ماتيو، أرجوك لا تفعل ذلك!

زمجر بوجهها: أنت طلبتِ ذلك وستحصلين على طلبك.

حملها بين ذراعيه بالقوة ومشى إلى غرفة النوم حيث وضعها على السرير.

هل ستقاومه؟ هل تحاول الهرب؟ أين تذهب في منتصف الليل؟ وكيف لها أن تقاوم ثورته وغضبه؟ من الأفضل أن تستسلم له ريثما تتلاشى رغبته وغضبه. فأخذت تتجاوب معه غصباً عنها لتتحاشى غضبه وثورته.

عندما انسحب وتمدّد في السرير إلى جانبها، كان كل جسمها يؤلمها بسبب العنف الذي استخدمه معها وكم تمنت لو يعود ويغمرها بين ذراعيه ويواسيها قائلاً لها إنه يحبها! ولكنّ المسافة القصيرة بينهما في السرير بدت كأنها مليون ميل.

نظرت إليه من طرف عينيها وهو ممدّد قربها على السرير وقد وضع إحدى ذراعيه تحت رأسه وأغمض عينيه. شعرت باليأس والانقباض وبدأت الدموع تنهمر ببطء على خدّيها.

رأته يقوم فجأة من السرير ويبتعد في الظلمة ومن دون أية كلمة أو نظرة انحنى وأخذ ثيابه وخرج من الغرفة.

بعد ذهابه ظلّت يولا مستلقية على فراشها في العتمة... كانت في حالة سيئة... إنها أسوأ حالاً من الحالة التي كانت عليها يوم فقدت ريتشارد. كان الألم والحزن يعتصران قلبها، فحبّها لماتيو يكاد يحطّمها لأنه حب بلا أمل فهو لا يحبها وقد برهن لها هذا الليلة تصرّفه المرعب. واقتنعت أنّ لا مستقبل لها معه وأنها لن تستطيع بعد اليوم أن تعيش معه، يجب عليها أن ترحل.

في الصباح التالي نهضت يولا من النوم تشعر بكل عظام جسمها تؤلمها. ذهبت إلى غرفة الحمام لتغتسل. كان الوقت متأخراً وماتيو غير موجود، فجلست إلى الطاولة في المطبخ تشرب قهوتها وتفكر في ما تفعل وأين تذهب؟

تكره الذهاب إلى مارغريت ولكنها وجدت أنه من الأفضل لها أن تصارحها بوضعها وتطلب نصيحتها. عندما اتصلت بشقيقتها على الهاتف كانت مرهقة ومتوترة الأعصاب.

- مارغريت، أنا بولا. أيمكنني أن أمضي بعض الوقت عندك؟

بعد صمت قليل أجابتها مارغريت:

- بالتأكيد. أحبّ أن تكوني معي دائماً، هل ماتيو مضطرّ إلى السفر في مهمة أخرى؟

- أخبرك بالأمر عندما أصل إلى منزلك، أيمكنني أن أذهب اليوم قبل الظهر؟

أرادت أن تخرج قبل عودة ماتيو لأنها لا تريد مقابلته.

- بالتأكيد يمكنك المجيء متى شئتِ. لدي موعد مع المزيّن في تمام الساعة الحادية عشرة، إن لم تجديني فاستخدمي المفتاح. تعلمين أين أضعه؟

بعدما أقفلت الخط راحت بولا توضّب أغراضها وثيابها، فعندما تسترخي أعصابها ستعود لأخذ كلّ أغراضها. بعدما أنهت توضيب حاجاتها وضعت في كيس خاص أوراق عملها وتصاميمها، وارتدت ثيابها بسرعة ونظرت إلى المرآة فوجدت أن مظهرها مقبول. ذهبت إلى المطبخ لتلقي نظرة أخيرة على البيت قبل ذهابها. أخيراً وضعت معطفها على كتفها وأمسكت الحقيبة بيدها وتقدمت ببطء نحو المدخل عندما سمعت حركة مألوفة في الباب. إنه ماتيو! خفق قلبها بسرعة وأحست بالارتباك، رأته واقفاً أمامها ينظر إليها متعجّباً. بدا فارع الطول، جذّاباً واثقاً من نفسه لكن علامات الهمّ والحزن بادية على محياه. لا شك أنه تعس مثلها، شعرت للحظة أنها تتمنى لو تهرع إليه لترمي نفسها بين ذراعيه وتقول له كم هي تحبّه.

قالت له:

- لم أتوقع قدومك في هذه الساعة المبكرة.

أخذ ينظر إلى الحقيبة في يدها وسألها:

- هل أنتِ راحلة؟

- أجل يجب أن أذهب بعيداً.

- أين ستذهبين؟

- إلى منزل مارغريت، لكن أرجوك لا...

رفع يده وقال لها:

- لا تخافي لن ألحق بك إلى هناك.

دنا منها خطوة وقال لها بصوت عميق:

- رجعتُ باكراً لأعتذر منك عن تصرفي ليلة أمس.

- أرجوك! إنها غلطتي... لا حاجة إلى الاعتذار. أنا تسببتُ بذلك.

أجابها وهو يحكّ رأسه:

- مع ذلك ما كان يجدر بي أن أهاجمك بهذا الشكل.

- ربما لا، الحقيقة أن وجودي قربك يدفعك إلى ذلك. لا وقت لدينا لنلعب أدواراً أو لنضع حواجز بيننا.

أجابها بلطف:

- لماذا؟

- لا أستطيع أن أشرح فأنا نفسي لا أفهم ذلك وهذا أحد الأسباب التي تدفعني للخروج والابتعاد عنك..

أحنى رأسه قليلاً وأجابها بصوت منخفض:

- أجل، أرى ذلك.

نظرت إليه فوجدته تعساً. شعرت فجأة بالعطف عليه ثم

استعادت صورته أمامها أمس وكيف تصرّف معها بحقدٍ ووحشية. فقالت له بحدّة:

- لا أريد أن أتصرّف معك بشكل قانوني لأنني لا أريد أن أتسبّب بفضيحة ولا أرغب أن أؤذيك أو أحطم مهنتك ومركزك السياسي.

نظر إليها وهو يبتسم:

- هل كنت تفكرين في الإدعاء عليّ لأنني أخذتك بالقوة.. أنا أفهم... قد حصل ذلك في بعض الولايات.

عضّت شفتها وأجابته:

- بالتأكيد لا! أنا لم أفكّر في ذلك قط.. أنت تعرفني، كنت أتكلم عن الطلاق.

- إفعلي ما يحلو لك بهذا الخصوص فلن يؤثّر هذا في مركزي. الناس ينسون بسرعة.

- حسناً يجب أن أخرج وعدتُ مارغريت أن أكون عندها قبل الظهر.

تناولت حقيبتها ودنت نحو الباب فابتعد قليلاً عن طريقها وقال لها وهي تخرج:

- حسناً! وداعاً بولا.

فأجابته بسرعة:

- وداعاً ماتيو.

مشت نحو المصعد والدموع في عينيها. نزلت إلى المرآب ثم وضعت حقيبتها في صندوق السيارة وانطلقت على مهل.

* * *

٩ ـ سرق ضحكتها

قالت لها مارغريت بصوت ساخط:

- يؤلمني صمتكِ بولا! أرجوك أخبريني الآن بما حدث معك؟

كانت بولا منحنية إلى مكتبها تحاول إنهاء رسومها قبل عطلة الميلاد لتسلمها في الوقت المحدّد إلى محل الملبوسات الشهير في فيلادلفيا.

- حسناً ماذا تريدين أن تعلمي؟

ظهرت علامات الرضى على وجه مارغريت وقالت لأختها:

- بولا، لا أريد أن أتطفل ولكنني أفهم جيداً طبيعتك، أنتِ تفضلين دائماً الاحتفاظ بهمومك ومشاكلك في قلبك، ولكن يجب أن أعلم ما الذي جرى بينك وبين ماتيو لمساعدتك. أنت هنا منذ شهر ومع ذلك لا تحاولين قطُّ الإجابة عن استفساراتي.

نظرت بولا من النافذة إلى الخارج. كان الطقس بارداً وداكناً، فالأشجار تعرّت من أوراقها كلها.. سيحل بعد وقتٍ قليل فصل الشتاء ببرده وثلجه وهي وحيدة تعسة.

- ليس هناك ما أخبرك به. تمّ الاتفاق بيننا على انفصال مؤقت، هذا كلّ شيء.

- لكن لماذا؟ بدوت سعيدة معه. ما الذي حدث بينكما؟ أهي

امرأة أخرى؟ حدسي يخبرني بذلك. أيخونك؟ لا أصدق ذلك، فماتيو ليس من هذا النوع.

أجابتها بولا بهدوء:

- لا، ليس هناك امرأة أخرى بالمعنى الحقيقي ولكن في الواقع هناك امرأة أخرى... إنها بيث!

- لا أفهم ماذا تعنين بقولك بيث؟

ردّت ماتيو وهي تسحب نفساً عميقاً:

- ما زال ماتيو يحب زوجته الأولى بيث.

نظرت إليها مارغريت متعجبة.

- لا معنى لذلك. لاحظ كل الناس أنه يحبك فهو يعاملك وكأنك قطعة من زجاج يخاف أن تنكسر، وهو حريص كثيراً عليك وقد لاحظته دائماً ينظر إليك بشغف وكأنه يريد أن يأكلك. إنه يحبك.

- أنتِ مخطئة مارغريت... أعلم أنّ ماتيو يريدني، لكنه لم يحبني قط بالطريقة التي أحبّ بها زوجته بيث.

ران الصمت بينهما قليلاً. لا تحب بولا أن تناقش أمورها العاطفية مع أحد، ولكن ماتيو لم يتصل منذ فراقهما قبل ستة أسابيع مع أنها لم تمض عليها لحظة إلاّ وفكرت فيه وافتقدته.

أوشكت مراراً على الاتصال به فقط لسماع صوته ولكنها كانت تتراجع في اللحظة الأخيرة لأن تصرّفها ذاك سيؤذيها ويزيد الأمور تعقيداً.

بعد صمت طويل سألتها مارغريت:

- ماذا ستفعلين؟

- لا أدري... لم نناقش ذلك. قد نطلّق.

- أعتقد أنك مجنونة. لماذا تهتمين إن كان لا يزال يحبّ زوجته؟ لقد توفيت ولكنك على قيد الحياة. أعلم أنّ ماتيو يحبك على طريقته، ألا يمكنك أن ترضي بما يمنحك إياه وتتابعي حياتك معه؟

- نعم يمكنني ذلك ولكنني أشعر أنني أحبه من دون أمل وذلك يعذّبني.

قالت مارغريت بهدوء وهي تنظر إلى شقيقتها بعطف:

- أفهم ذلك أخيراً.

وهبّت من مكانها بسرعة وقالت:

- حسناً أنا منشغلة كثيراً، فالساعة الآن الثانية عشرة ظهراً ولم أبدأ حتى الآن بتحضير الحفلة.

فوجئت بولا:

- حفلة! أية حفلة؟

نظرت إليها مارغريت مبتسمة:

- الحفلة التي أخبرتك عنها منذ ثلاثة أسابيع، لا تقولي لي إنك نسيتها!

- أوه! لا لم أنسَ لكنني اعتقدت أنّ الوقت ما زال مبكراً.

ثم سألتها والشك يساور قلبها:

- هل دعوتِ ماتيو أيضاً؟

احمرّ وجه مارغريت وأجابت بعصبية:

- بصراحة، أجل دعوته.

- إذن، أنا مضطرة إلى الرحيل.

استدركت مارغريت:

- لكنه أجابني أنه سيكون خارج المدينة وقد سأل عنك عندما طلبته على الهاتف.

- ماذا أخبرته؟

- قلت له ببساطة إنني لا أستطيع أن أفهمك ولن أفهمك أبداً، ولكن تبيّن لي أنه مهتم بك كثيراً.

ظلت يولا صامتة فخرجت مارغريت للبدء.

عادت يولا إلى عملها. طبعاً هو مهتم بي، لكن ذلك لا يعني أنه يريدني أن أعود إلى المنزل. آه! ماذا تفعل فهي بحاجة فقط إلى إشارة منه لتعود إليه بكل ما للكلمة من معنى. ولكن لماذا لم يتصل بها طوال هذه المدة؟ أينتظر أن تتصل به؟ أيمكن أن تعود المياه إلى مجاريها بينهما؟ هناك شيء آخر. تشعر أنها حامل وإذا كان ذلك صحيحاً فستعود إليه وفقاً لاتفاقهما الأساسي.

عادت بفكرها قليلاً إلى تلك الليلة السوداء وتذكّرت كيف طارحها الحبّ بكره وغضب ووحشية... لم يعاملها أحد قطّ بتلك الطريقة ولكن لم يقدر أحد على تحريك رغباتها كما يفعل هو.. نعم فهي لم تشعر قط بهذه المشاعر الجامحة سابقاً مع ريتشارد.

لم يكن باستطاعة يولا أن تختبئ في غرفتها طوال السهرة، فمارغريت دعت أكثر من خمسين شخصاً وسيملأون البيت بعد قليل. فكّرت أن تظهر في الحفلة بعد وصول كلّ المدعوين. لم يكن عندها ثياب لترتديها غير ثوبها الأسود الذي سبق أن ارتدته

في الحفلة الأخيرة، فثيابها ما تزال في المنزل عند ماتيو.

نزلت بخفّة ومشت نحو المقصف. كان وليم جالساً هناك إلى جانب ديفيد وايات. عندما رآها وليم ابتسم لها وقال لها:

- ها أنتِ أخيراً هنا، هل ترغبين ببعض القهوة؟

- أجل، أرجوك.

ثم التفتت إلى ديفيد وقالت له:

- هللو ديفيد، لم أرك منذ وقت طويل. كيف حالك؟

وضعت يدها على كتفه.

- لا بأس كالعادة، أنا على ما يرام..

راح ديفيد يخبرهم بطريقة مضحكة ما حدث أخيراً في الكونغرس بين عضوين الأول عن ولاية ألباما والآخر من كنساس. كان يروي قصة شجارهما بشكل مثير حتى أضحك الجميع.

بدت يولا في غاية الانشراح فلم تشعر منذ مدة طويلة بهذا الاسترخاء. كانت على خطأ إذ أرادت أن تدفن نفسها في عملها وتختبئ في غرفتها فقد حان الوقت لتعود إلى حياتها، حتى ولو كان ذلك من دون ماتيو. فجأة شاهدته فاختفت الضحكة عن ثغرها. كان واقفاً على المدخل بقامته المديدة وبطلّته الساحرة وكان يحدّق إليها من بعيد. ارتبكت وشعرت بالدوار، فتمسكت لا شعورياً بذراع ديفيد.. وتساءلت هل كذبت عليها مارغريت عندما قالت لها إنه لن يأتي هذا المساء.

اقترب ببطء منهم، فشخصت الأنظار إليه. رفعت يدها عن ديفيد وارتدت قليلاً إلى الوراء. كان قلبها يخفق بسرعة والتفتت إليه وقالت له بصوت منخفض:

ـ هللو، ماتيو!

ـ هللو، بولا، كيف حالك؟

تظاهرت بالابتسام: على ما يرام.

ـ ألاحظ ذلك، أراك تمضين وقتاً ممتعاً.

قالها وهو ينظر إلى ديفيد: أود التكلم معك قليلاً.

ـ حسناً، تعال إلى المكتب، لن يزعجنا أحد هناك.

خرجا من الصالة الكبيرة وتوجّها إلى مكتب وليم. لدى دخولهما أقفلت بولا الباب ووقفت لتصغي إلى ما يريده منها.

كان المكتب دافئاً، هناك نار خفيفة تشتعل ببطء في المدفأة، الغرفة صغيرة لكنها رائعة فالكتب على الرفوف تملأ جدران الغرفة ومكتب وليم الخشبي يتوسطها، والستائر مسدلة. بدت الغرفة حميمة لبولا بعدما أصبحت بعيدة عن الضجة الكبيرة القائمة في المنزل.

وقف ماتيو أمامها مديراً ظهره إلى المدفأة.

قال لها بصوت داكن:

ـ لن أعيد الكلام بشأن ما حدث بيننا، جئت هذه الليلة لأطلب منك أن تعودي معي إلى المنزل. لقد فكرت في ذلك كثيراً.. أعلم أنك لا تريدين رؤيتي وأنك لم تحاولي أن تتصلي بي ولو مرة طوال هذه الأسابيع. لهذا السبب قلتُ لمارغريت إنني لا أستطيع الحضور... أردت أن أفاجأك لأرى ردة فعلك ولكنني عندما دخلتُ فشاهدتك مع «وايات» تمسكين يده وتضحكين وتنظرين إليه عرفت أن ذلك مستحيل، فأنا لم أجلب لك سوى البكاء.

صرخت:

ـ هذا ليس صحيحاً! ديفيد وايات لا يعني لي شيئاً ولم يعنِ لي شيئاً قط. إنه شخص مسل، أما أنت فلم أردك قط أن تكون شخصاً مسلّياً.

ـ ماذا تريدين أن تفعلي بولا؟

اعتصمت بالصمت ففي هذه اللحظة تمنت لو تقول له إنّها لا تريد سوى حبّه، ولكنها لم تستطع الكلام.

ـ افتقدتكِ بولا، افتقدتكِ كثيراً، هل تريدين العودة؟ هل ستحاولين مرة أخرى؟ أعدكِ بأنني لن ألمسك ولن أقترب منك أبداً.

عضت على شفتها ونظرت إلى البعيد. كان فكرها مشوّشاً، هل يمكنهما أن يعودا إلى وضعهما السابق؟ إلى صداقتهما البريئة بعد كلّ الذي حدث بينهما؟ فكّرت في تلك اللحظة: ربما كانت حاملاً، سيختلف الوضع إذن وسيكون من الأفضل أن تعود إلى المنزل.

نظرت إليه وقالت له:

ـ دعني أفكّر في الموضوع ماتيو! أمهلني أسبوعاً أو أسبوعين.

ـ طبعاً، طبعاً، خذي وقتك.

رأت بريقاً من السعادة في عينيه، ففكّرت أنّه لا يحبها ولكنه يريدها أن تكون زوجته. تركها ولم تشاهده طوال الحفلة... يبدو أنّه خرج وعاد إلى المنزل.

بعد أسبوع ذهبت بولا إلى المدينة، كانت على موعد مع

الدكتور بانكس. بعد انتهاء المعاينة، جلست في مكتبه تنتظر بفارغ الصبر تشخيص الفحص وقال لها الطبيب أخيراً:

- حسناً يا عزيزتي أنت حامل، لكنني سأقوم باختبار آخر فيما بعد... في مطلق الأحوال أنا متأكد من تشخيصي، فعلامات الحمل ظاهرة بوضوح عليك.

عادت يولا إلى منزل شقيقتها في فيرجينيا سعيدة بالخبر. إنها تحمل طفل ماتيو، ستعود إليه، من يدري ربما سيعيشان حياة حلوة بوجود طفلهما، حتى ولو كان ذلك من دون حب. أخيراً يمكنها أن تعيش على الأمل.

ما إن وصلت إلى منزل شقيقتها حتى أخبرتها بأنها عائدة إلى منزلها بعد الظهر، فصرخت مارغريت من الفرح:

- أوه! ما أسعدني! لقد اخترتِ الطريق الصحيح. كنتِ غبية عندما تركتِ رجلاً مثل ماتيو ستراتون يبتعد عنك ويفلت من بين يديك.

ابتسمت يولا لأنَّ مارغريت تجهل حقيقة علاقتها مع ماتيو. لم تحب أن تشرح لها ذلك كما أنها لم تخبرها بخصوص الطفل، إذ يحق لماتيو أن يكون أول من يعلم بذلك.

سألتها:

- متى ستتركين؟

كانتا جالستين في غرفة الاستقبال تشربان القهوة قرب النار. إنّها تمطر خارجاً، قالت يولا في نفسها: لن أقضي هذا الشتاء بمفردي.

أجابتها بعد صمت قصير.

- سأرحل غداً... ليس لدي إلا القليل من الأغراض.

أجابتها مارغريت بصوت حنون وهي تربت على كتفها:

- أنا مسرورة جداً يولا! طالما تمنّيت أن تكوني دائماً سعيدة.

وراحت الدموع تنهمر من عينيها.

تأثرت يولا بدموع شقيقتها وقالت لها:

- أوه توقفي أرجوك! أنا لا أضمن ذلك فقد تجدينني بين ذراعيك مرة أخرى.

أجابتها مارغريت بتأثّر:

- أوه! لا! إذا تركتِ هذا الرجل مرة أخرى فلن أدعك تدخلين منزلي.

* * *

١٠ ـ حبه كالهواء

عادت بولا إلى منزلها بعد ظهر اليوم التالي فدخلت إلى غرفتها وفتحت حقيبتها وأعادت أغراضها وثيابها القليلة التي أخذتها معها إلى مكانها في الخزانة.

ثم ذهبت إلى المطبخ لتحضّر فنجاناً من الشاي. كان كلّ شيء في مكانه، نظيفاً ومرتّباً... يبدو أنه كان يتناول طعامه خارجاً.

فكّرت فوراً لماذا لا تحضّر له عشاءً لذيذاً؟ سيطيب له ذلك وسيعتقد أنها عادت لتبقى. فتحت البرّاد وخزانة الطعام فلم تجد سوى القليل، ففكّرت أن تحضّر له شوربة الخضار المعلّبة إلى جانب صحن من عجة البيض. غداً تذهب لتتبضّع ولتشتري كل ما يلزم للمنزل فماتيو بحاجة إلى من يعتني به، إنّه بحاجة إليها... شعرت بالحب يعمّ قلبها.

تناولت فنجان الشاي في يدها وراحت تتمشى في المنزل، فرحت كثيراً لأنّ أغراضها ما تزال مرتّبة كما تركتها.

إنه منزل جميل ستهتم به وتزيّنه وترتّبه بشكل أفضل وسيسعد ذلك ماتيو.

ظلّت تتمشى في المنزل حتى وجدت نفسها بدون أن تدري

أمام غرفة ماتيو. كان الباب مفتوحاً فدخلت فجأة وألقت نظرة سريعة على الطاولة الصغيرة قرب السرير حيث كان يضع دائماً صورة بيث. فلم تجدها هذه المرة... تملّكها القلق والعجب، ماذا يعني ذلك؟ أحسّت فجأة بشعاع من الأمل في داخلها، ثم عادت ففكّرت: ربما سافر إلى خارج المدينة وأخذها معه. إنه خارج المدينة على ما يبدو فالمنزل فارغ ونظيف ومرتّب. لا بدّ أنه رحل منذ عدة أيام. إنها غيبة فلماذا لم تتصل به قبل مجيئها وأرادت أن تفاجأه؟ من عادته لو كان هنا أن يعود في مثل هذا الوقت. إنها الساعة السادسة مساءً. عادت إلى المطبخ فغسلت فنجانها وراحت تنظر من النافذة إلى الخارج. الظلام في كل مكان والمطر يتساقط بغزارة. شعرت بالانقباض والكآبة ما إن استعادت المشاريع التي فكّرت فيها للمستقبل.

لاحظت فجأة في زاوية المطبخ جريدة ملقاة على الأرض، أخذتها بيديها ونظرت إلى تاريخها. إنه الثامن عشر من شهر كانون الأول. إنّها جريدة اليوم، إذن كان في المنزل صباحاً؟ تجهّم وجهها، فهذا التاريخ يعني لها شيئاً. حاولت أن تتذكّر جلست وقتاً طويلاً، أخيراً حزرت: يا لغباوتها! كيف نسيت ذلك؟

إنّها ذكرى وفاة بيث! لم يجدر بها العودة إلى المنزل في مثل هذا اليوم. لا بدّ أنّ ماتيو في مكان ما يحاول أن ينسى هذه الذكرى المؤلمة.

وقفت جامدة، وحيدة وكئيبة.. فكّرت للحظةٍ أن تترك المنزل وتهرب بعيداً ولكنها تذكرت فجأة الجنين الذي تحمله في

أحشائها فقررت أن تبني حياة جديدة مع ماتيو مهما كلّف الأمر.

هل ستهرب من أول تجربة؟ هل ستضعف في أول المحاولة؟ لا لم يكن هذا قرارها. ستجابه ضعفها وتبقى، ستحضّر العشاء وتبقى جالسة وحيدة بانتظاره ربّما يعود.

استحمت ثم تناولت طعام العشاء وجلست قرب النار تستدفئ بحرارتها، وتتصفح الجريدة. كان الوقت متأخراً فأحسّت بالدفء والنعاس. فتحت الستريو ووضعت موسيقى هادئة كونشيرتو لهايدن وأطفأت النور وراحت تستمع إلى الموسيقى الهادئة. ثم سرعان ما سبحت في عالم آخر... عالم الروح حيث تبدو المشاكل عديم الأهمية. كانت مأخوذة بأحلامها فلم تسمع صوت المفتاح في الباب، لكنها شعرت فجأة أنها ليست وحدها.

فتحت عينيها وأدارت رأسها ببطء. في بادئ الأمر لم تتأكد منه... كان واقفاً في الظلام، فأسرع قلبها خفقاته من الخوف. هبّت واقفة وهي ترتجف وتفرست به في الظلمة، ثم دنا خطوة من الضوء فعرفته وصرخت وقد استعادت أنفاسها:

- ماتيو، لقد أرعبتني! ظننتك خارج المدينة.

ظلّ صامتاً، غامض النظرات قاسي الملامح. فتذكرت عندئذ تاريخ اليوم، إنها ذكرى مؤلمة بالنسبة إليه. لبثها لم تأتِ في هذا الوقت المُحرج!

جلس قربها وقال لها بصوت أجش:

- إنني سعيد جداً بعودتك بولا! هل عدتِ لتبقي؟

أرادت أن ترفّه عنه فقالت له مازحة:

- سأبقى إذا كنت تريدني.

- بالتأكيد، أنا أريدك كثيراً، تعلمين ذلك.

ثم أغمض عينيه ووضع رأسه بين يديه.

- يا إلهي إنني منهك، كنت في اجتماع مغلق منذ الصباح حتى هذه الساعة.

فتح عينيه وتابع:

- إنني متعب وجائع. لم أحضّر شيئاً لعودتك... لقد فاجأتني! أنا آسف سنحتفل بعودتك غداً مساءً.

راقبته وهو يتكلم فرأت في أعماق عينيه الرماديتين ضوءاً من البهجة والراحة. فشعرت بالحب يملأ قلبها وتأكدت أنّ هذا هو منزلها... إنّه يحتاجني وأنا أحتاجه. وضعت يدها على ذراعه وقالت له بحنان:

- لا تقلق عليّ، أنا بخير. لِمَ لا تذهب وتغتسل ريثما أحضّر لك بعض الطعام؟ ليس هناك الكثير، قليل من عجة البيض والحساء.

وقف ثم قبّل شعرها برقّة وذهب إلى غرفته وهو يقول:

- أنتِ زوجة صالحة، يا سيدة ستراتون. لن أتأخر... امنحيني نصف ساعة فقط.

قالت بولا في نفسها وهي تحضّر الطعام: يبدو مسروراً بعودتي. لقد أطلّ وعلى وجهه نظرة كئيبة بسبب بيث، ولكنها اختفت وحلّت مكانها نظرة فرح وسرور بسبب عودتي إليه.

في أقل من نصف ساعة، حضّرت له طعام العشاء الذي وضعته على طبقٍ كبيرٍ وحملته إلى غرفة الجلوس. كان ماتيو هناك جالساً قرب النار وقد ارتدى سروالاً أسود وقميصاً رمادي اللون،

إنه رجل جذاب، يا الله!! إنها تحبه وتعشقه وتتمنى لو يحبها.

عندما وصلت إلى الغرفة قالت له بصوت حنون:

- هذا هو عشاؤك.

كان ينظر إليها وهي تضع العشاء على الطاولة أمامه ثم وقف قربها وقال:

- اجلسي معي بولا، ابقي معي!

- طبعاً، سأبقى.

أثناء تناوله الطعام أخذا يتحدثان عن أعمالهما خلال هذه الفترة الطويلة من الغياب. بدا جائعاً جداً، تناول كلّ الطعام الذي حضرته له وعندما انتهى أخذت الطبق إلى المطبخ وحضّرت بعض القهوة لهما، وعادت تجلس قربه. تناول فنجان القهوة واستلقى إلى الوراء فبدت الراحة على محيّاه.

قال لها: كان ذلك رائعاً. افتقدت طعامك بمقدار ما افتقدتك.

أخذ ينظر إليها والشوق في عينيه. فأحسّت فجأة ببعض التوتر، وأدركت فوراً أنها ترتدي فقط ثوبها المنزلي الأزرق الشفاف. قالت لها غريزتها إنّه يريدها وشعرت بأن كل مقاومتها ستنهار ما إن يقوم بأقل حركة.

فكّرت أيضاً ماذا تعني هذه الليلة لمانيو. لا يمكنها أن تحلّ مكان بيث. قد تخضع لمطالبه الزوجية من دون حب، لكن يجب قبل ذلك أن تتأكد أنه يرغبها شخصياً ولا يرغب في شبح زوجته من خلالها. اتخذت قرارها وقالت له:

- إنّ وضعك ومعنوياتك هذه الليلة أفضل بكثير من السنة

الماضية.

نظر إليها متسائلاً:

- لم أفهم ما تقصدين؟ ما هو الشيء المميز في هذا اليوم؟

- إنه الثامن عشر من شهر كانون الأول

نظر إليها نظرة عميقة، واختفى الضوء والسرور من عينيه. هزّ رأسه ثم وضع فنجانه على الطاولة وقال لها:

- نسيت ذلك، نسيت كل شيء حتى ذكرتِ ذلك الآن.

ابتسم وأردف:

- كنت مغتاظاً كثيراً وخشيت أن أفقدك. وأنا أفكّر ماذا عليّ أن أفعل لتعودي وكيف عليّ أن أتصرف لأحتفظ بك، لم يكن في رأسي وتفكيري مكان لأي شيء آخر.

أجابته بولا بصوت خافت:

- أرى ذلك، حسناً ها قد عدتُ لأبقى وأريد منك أن تعلم أنني أفهم كلياً شعورك، وأعرف أنك ما زلت على حب بيث باقٍ وأنّها تحتل المركز الأول في قلبك. لم تكن مضطراً إلى إخفاء صورتها لكي لا تجرح شعوري.

كان ينظر إليها بتعجب وهو لا يكاد يصدّق ما تقول:

- يا إلهي! أهذا ما تفكرين فيه؟ أخفيتُ هذه الصورة بعد رحيلك مباشرة، وأردت أن أضع مكانها صورتك لأنني افتقدتك ولم أعد أراك، فلم أجد أي صورة لك لأضعها على الطاولة أمامي. عندئذ قرّرت أن أذهب إلى منزل مارغريت وأطلب منك أن تعودي حتى ولو اضطررت أن أحملك على كتفيّ وأعود بك.

كان قلب بولا يخفق بسرعة هائلة لا تكاد تصدّق ما يقول

فأجابته ببساطة:

ـ لماذا لم تفعل ذلك؟

قال بحزن:

ـ عندما دخلتُ ورأيتك مع ديفيد وإيمات تنظرين إليه وتضحكين وأنت على ما يرام، أدركت فجأة أنه ليس لدي ما أقدمه لك. لم أقدم لك سوى التعاسة، فندمت ولمتُ نفسي على تصرفي معك تلك الليلة.

ـ تصرفت بحماقة ولكنني وافقت أن أحمل طفلك.

ـ أعلم ذلك لكنني شعرت أن وراء تصرّفك هذا ريتشارد، وشعرت أنكِ ما زلت تحبينه كثيراً وأنه يحتل المرتبة الأولى عندك.

قالت بتعجب:

ـ ريتشارد! أنا لا أحب ريتشارد.

وضعت يدها على ذراعه وتابعت:

ـ أوه! لقد أحببته دائماً ولكنّه مات وأصبح من الماضي، فأنت زوجي الآن.

نظر إليها وهو لا يصدّق:

ـ لماذا تركتني إذن ورحلتِ عني؟

ـ لم يعد باستطاعتي أن أتحمل ذلك، أن أستجيب لك بكل جوارحي ثم أنهض في الصباح وأراني وحيدة بعدما تركتني. اعتقدتك تستخدمني فقط لأحمل لك طفلك ولأكون بديلة عن المرأة التي تحبّها بالفعل.

قال بعصبية:

ـ لا أصدّق كل ذلك! كيف يتصرف شخصان ذكيان بمثل هذه الحماقة وهذه الظنون؟ يا لعماوي! كنت أتركك غصباً عني، إذ كنت أخاف أن تنهضي صباحاً وتجديني قربك فتصدمين لأنني لست ريتشارد.

انحنى نحوها بحنان، ووضع أنامله على شعرها ووجنتيها وشفتيها. نظرت إليه وهي تحترق من الرغبة والحب. ضمّها فجأة إلى صدره ووضع خدّه على خدّها وتمتم:

ـ أوه! يا حبيبتي، كنت غبياً. لم ألاحظ قطّ أنني أسيء إليك بتصرّفي هذا... أردت أن أبعد الحزن عنك ولكنني لم أفعل سوى عكس ذلك. منذ رأيتك لأول مرة لم تكوني كالنساء الأخريات، شاهدتكِ منزوية باردة وحزينة... لم تحاولي الالتفات إليّ أو لأي شخص آخر. أنت تختلفين عن بيث التي أقرّ أنها كانت في دمي لمدة طويلة، كانت كل شيء بالنسبة لي...

وأضاف ضاحكاً: وكانت تحميني أيضاً من النساء اللواتي يدبّرن الزيجات.

ـ كما فعلت مارغريت التي حاولت مراراً أن تجمع بيننا.

ـ أجل مثل مارغريت... لكنني لاحظت أنك كنت فعلاً ترفضين أية علاقة عاطفية فأحسست بشعور غريب يدفعني إليك.

وضعت يدها على ذقنه تداعبه... كانت تفوح منه رائحة العطر. قالت: كنتَ بارداً طوال الوقت ومنزوياً... كيف تريد مني أن أعرف شعورك الحقيقي؟

ـ لم أرد أن تعرفي ذلك، إذ خشيت لو أدركتِ مدى حبي لك أن تصابي بصدمة فتبتعدي عني.

سألته متعجبة:

ـ ماتيو؟ أيعني هذا أن ذلك الاتفاق الأفلاطوني بيننا كان مجرد كذبة وكذلك مسألة الطفل؟

ضحك وأجابها:

ـ ليس تماماً، فأنا أردت فعلاً طفلاً ولكنني أردتك أكثر.

ثم غمرها بذراعيه وتابع:

ـ يجب أن تعرفي يا حبيبتي أن لا وعي ولا ضمير عند العاشق الولهان.

تعجّبت يولا، وهي تفكر في تصرّفات ماتيو الغريبة وفي قوة إرادته وبرودة أعصابه وجموح عاطفته. كان ماتيو يداعب شعرها ووجهها بأنامله برقة ثم قال لها:

ـ سامحيني حبيبتي.

ـ أحبك ماتيو! لم تفعل ما أسامحك عليه.

عانقها برقة فأحاطت عنقه بيديها والتصقت به وأناملها تداعب شعره الأسود المتماوج. كان كل عصب من أعصابها يحترق من الشوق. أخذت أنامله تنزلق بسحر عن كتفيها.

وقف بهدوء ورفعها معه وضمّها إليه بقوة حتى التصقت به. وشوش بأذنها:

ـ أحبك يولا! أريدك أكثر من أي شيء في الدنيا... كان قلبي ميتاً فرددت الحياة إليّ.

ـ أنا أحبك أيضاً ماتيو أحبك أكثر من أي شيء حلمتُ به وتمنّيته في حياتي..

استفاقت يولا في النهار التالي على أشعة الشمس الشاحبة

التي تسللت إلى غرفتها عبر ستائر الغرفة وهي تشعر بالحبور والسعادة. حاولت أن تنهض فتذكرت بذراع قوية تحيط بخصرها. نظرت وهي تبتسم إلى شعر زوجها المتماوج على عنقها وإلى جسمه الطويل بقربها. تراجعت على مهلها إلى الوراء وحضنت رأسه على صدرها تداعب شعره بحنان، فتحرك قليلاً وفتح عينيه مبتسماً:

ـ صباح الخير حبيبتي!

سحب نفساً طويلاً ثم عانقها.

ابتعدت عنه، وقالت له بحزم:

ـ قبل أن تنهمك في عملك هذا، أريد أن أطرح عليك سؤالاً.

ـ اسألي بسرعة!

ـ هل تحب أن تصبح والداً؟

استمرت يداه بمداعبتها وبدأ جسمها يحترق وشعرت أنها ستسترخي وتتجاوب مع مشاعرها فيتعذر عليها الكلام.

أجابها: في أي وقت تريدين، مام...

فقالت له بسرعة:

ـ ما رأيك إذا أصبحتَ والداً خلال سبعة أشهر؟

توقف فجأة عن معانقتها وأخذ يحدق فيها:

ـ ماذا قلتِ؟

أجابته وهي تبتسم:

ـ آه! أثار ذلك انتباهك.

ـ هل تعنين ذلك؟

أومأت برأسها.

سألته متعجبة:

ـ ماتيو؟ أيعني هذا أن ذلك الاتفاق الأفلاطوني بيننا كان مجرد كذبة وكذلك مسألة الطفل؟

ضحك وأجابها:

ـ ليس تماماً، فأنا أردت فعلاً طفلاً ولكنني أردتك أكثر.

ثم غمرها بذراعيه وتابع:

ـ يجب أن تعرفي يا حبيبتي أن لا وعي ولا ضمير عند العاشق الولهان.

تعجّبت يولا، وهي تفكر في تصرّفات ماتيو الغريبة وفي قوة إرادته وبرودة أعصابه وجموح عاطفته. كان ماتيو يداعب شعرها ووجهها بأنامله برقة ثم قال لها:

ـ سامحيني حبيبتي.

ـ أحبك ماتيو! لم تفعل ما أسامحك عليه.

عانقها برقة فأحاطت عنقه بيديها والتصقت به وأناملها تداعب شعره الأسود المتماوج. كان كل عصب من أعصابها يحترق من الشوق. أخذت أنامله تنزلق بسحر عن كتفيها.

وقف بهدوء ورفعها معه وضمّها إليه بقوة حتى التصقت به. وشوش بأذنها:

ـ أحبك يولا! أريدك أكثر من أي شيء في الدنيا... كان قلبي ميتاً فرددت الحياة إليّ.

ـ أنا أحبك أيضاً ماتيو أحبك أكثر من أي شيء حلمتُ به وتمنّيته في حياتي..

استفاقت يولا في النهار التالي على أشعة الشمس الشاحبة

التي تسللت إلى غرفتها عبر ستائر الغرفة وهي تشعر بالحبور والسعادة. حاولت أن تنهض فتذكرت بذراع قوية تحيط بخصرها. نظرت وهي تبتسم إلى شعر زوجها المتماوج على عنقها وإلى جسمه الطويل بقربها. تراجعت على مهلها إلى الوراء وحضنت رأسه على صدرها تداعب شعره بحنان، فتحرك قليلاً وفتح عينيه مبتسماً:

ـ صباح الخير حبيبتي!

سحب نفساً طويلاً ثم عانقها.

ابتعدت عنه، وقالت له بحزم:

ـ قبل أن تنهمك في عملك هذا، أريد أن أطرح عليك سؤالاً.

ـ اسألي بسرعة!

ـ هل تحب أن تصبح والداً؟

استمرت يداه بمداعبتها وبدأ جسمها يحترق وشعرت أنها ستسترخي وتتجاوب مع مشاعرها فيتعذر عليها الكلام.

أجابها: في أي وقت تريدين، مام...

فقالت له بسرعة:

ـ ما رأيك إذا أصبحتَ والداً خلال سبعة أشهر؟

توقف فجأة عن معانقتها وأخذ يحدق فيها:

ـ ماذا قلتِ؟

أجابته وهي تبتسم:

ـ آه! أثار ذلك انتباهك.

ـ هل تعنين ذلك؟

أومأت برأسها.

غمرها بذراعيه وجذبها إلى صدره بعطف وحنان فاستكانت ولفّت عنقه بذراعيها وأحست بالحب والسعادة، وفكّرت أن اعتيادها على الحب هو حاجة ضرورية لحياتها كالهواء والماء، وأدارت رأسها لتستقبل قبلة زوجها.

* * *